تطْرِيزُ

الشيخ صالح بن عبد الله بن حمد العصيمي

حفظه الله تعالى

علىٰ

أصول عظيمة

من قواعد الإسلام

العلامة عبد الرحمن بن ناصر ابن سعدي

المتوفىٰ سنة ١٣٧٦، **رحمه الله تعالى**

النُّسخة الإلكترونيَّة (١)

الشيخ لم يراجع التفريع

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

الحمد لله ربنا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

أما بعد؛ فهذا (**الدرس الثالث**) من برنامج (**الدرس الواحد العاشر**)، والكتاب المقروء فيه هو «**أصول عظيمة من قواعد الإسلام**»، للعلامة ابن سعدي رحمه الله تعالىٰ، وقبل الشروع في إقرائه لابد من ذكر مقدمتين اثنتين.

المقدمة الأولىٰ التَّعريف بالمصنف، وتنتظم في ثلاثة مقاصد.

المقصد الأول: **جرُّ نسبه**؛ هو الشَّيخ العلَّامة القدوة، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله التَّميمي السِّعدي، بكسر السين، فهو المسموع من أهل بيته وأصحابه الآخذين عنه، يُكنىٰ بأبي عبد الله، ويُعرف بابن سِعدي نسبة إلىٰ أحد أجداده.

المقصد الثاني: **تاريخ مولده**؛ ولد في الثاني عشر من المحرم سنة سبع، بعد الثلاثمائة والألف (١٢/ المحرم/ ١٣٠٧).

المقصد الثالث: **تاريخ وفاته**؛ توفي رحمه الله قبل طلوع فجر يوم الخميس، الثالث والعشرين من جمادىٰ الآخرة سنة ستٍّ وسبعين بعد الثلاثمائة والألف (٢٣/ جمادىٰ الآخرة/ ١٣٧٦)، وله من العمر تسع وستون (٦٩) سنة رحمه الله تعالىٰ رحمة واسعة.

المقدمة الثانية: التعريف بالمصنَّف، وتنتظم في ثلاثة مقاصد أيضًا.

المقصد الأول: **تحقيق عنوانه**؛ أهمل المصنف رحمه الله تعالىٰ تسمية كتابه هذا، فوقع في نسخته الخطية غفلًا من اسم يدل عليه، وارتضىٰ ناشره أن يسميه «أصول عظيمة من قواعد الإسلام»، مستمدا ذلك من وصف المصنف كتابه بذلك فإنه ذكر في ديباجته، أنه يشتمل علىٰ قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام.

المقصد الثاني: **بيان موضوعه**؛ وضع المصنف رحمه الله كتابه هذا للإبانة عن جملة من القواعد الكبرىٰ في الدين.

المقصد الثالث: **توضيح منهجه**؛ رتَّب المصنف رحمه الله تعالىٰ كتابه مقسمًا علىٰ القواعد الخمس التي ارتضاها، وجعلها أصولًا عظيمة من قواعد دين الإسلام.

فالقاعدة الأولىٰ: في بيان بناء الدين كله علىٰ عبادة الله والاستعانة به.

والقاعدة الثانية: في بيان أن الدين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ.

القاعدة الثالثة: في بيان أن الإيمان، هو الأصل الذي دعت إليه الرسل، وبه يقول الرقي الحقيقي.

القاعدة الرابعة: في بيان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والصبر.

القاعدة الخامسة: في بيان أن الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق وعزز كل قاعدة بما يكشف عنها من الأدلة، مع تحقيق المعنىٰ المراد بها معتنيًا بإبطال المقولات الفاسدة التي راجت في زمانه، كدعاوىٰ الإلحاد، وتقديم العلوم الدنيوية الباهرة علىٰ العلوم الشرعية النّافعة، كل ذلك في نسقٍ بليغ وبيان فصيح لم يُشب بوعورة منطقه ولا عسر ألفاظه؛ إذ قد أُلين له الخطاب في البيان رحمه الله إبانة ظاهرة، فله يد طول في إيصال المعاني بأيسر المباني، وليس كل الناس يتهيَّأ له ذلك، فإن الإبانة عن المعنىٰ المراد بعبارة سهلة، يشق علىٰ أكثر المتكلمين في العلم وهو من الهبات التي يهبها الله ﷻ لمن يشاء من خلقه.

قال العلامة ابن سعدي رحمه الله:

قال الله تعالىٰ: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾

اللَّهُمَّ صلِّ علىٰ محمد وعلىٰ آله وأصحابه، ومن تبعهم إلىٰ يوم الدِّين، هذه قواعد وأصول عظيمة من قواعد دين الإسلام.

تواطأ المصنفون علىٰ استفتاح كتبهم بحمد الله عَزَّوَجَلَّ بعد ذكر البسملة حتىٰ صار هذا أدبا من آداب التأليف؛ بأن يذكر حمد الله عَزَّوَجَلَّ في صدر الكتاب بعد استفتاحه ببسم الله الرحمن الرحيم.

واستدل له استئناسًا بكون الفاتحة هي أول المرسوم في المصحف، وأول الفاتحة هو حمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وأبلغ الحمد ما حمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ به نفسه، فاختار المصنف رحمه الله تعالىٰ أن يجعل محل ما درج عليه المصنفون من ألفاظ الحمد، السورة العظيمة سورة الفاتحة فأنزلها في مقام الحمد المذكور عند المصنفين بعد البسملة في أوائل تآليفهم فكأن المصنف سمىٰ ثم حمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بذكر هذه الصورة تامة وهي سورة الفاتحة، وما ذكر آنفا من كون أبلغ الحمد هو ما حمد الله عَزَّوَجَلَّ به نفسه، هو خلاف من قال من الشافعية بأن أبلغ الحمد لله (حمدًا يوافي مزيد نعمائك...) إلىٰ آخر ما ذكروه، ولابن القيم رسالة جليلة رد فيها هذا القول وبين ما ورد من حمد الله عَزَّوَجَلَّ في الكتاب والسنة و هي رسالة نافعة ينبغي أن يطلع عليها طالب العلم طبعت باسم «فتيا في الحمد» وطبعت أيضا باسم آخر.

القاعدة الأولى

الدين كله مبنيٌّ على عبادة الله وحده، والاستعانة به وحده

كما صرحت به هذه السورة الكريمة، وفي القرآن الجمع بين هذين الأمرين في مواضع متعددة؛ كقوله: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾[هود:١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ۝٨٨﴾[هود]، وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا﴾[الممتحنة:٤]، وغير ذلك من الآيات، وفي الأحاديث عن النبي ﷺ من هذا شيءٌ كثير؛ كقوله: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله**»، «**إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله**»، وبتتميم العبد لعبادة الله واستعانته به تكمُل أموره الدينية والدنيوية، فعبادة الله أن يقوم العبد بتوحيد الله وعبوديته الظاهرة والباطنة، المالية والبدنية، والمركبة منهما، المتعلقة بحقوق الله تعالىٰ، والمتعلقة بحقوق خلقه، ومن ذلك القيام بالمصالح الكلية النافعة للمسلمين في دينهم ودنياهم، ويكون هذا القيام مصحوبًا بثلاثة

أمور:

- قوة الجد والاجتهاد بحسب ما يستطيعه العبد.
- وقوة الاعتماد علىٰ الله في تيسير ذلك الأمر الذي يحاوله العبد مع الثقة التامة بالله في تيسيره.
- وكمال الإخلاص لله بحيث لا يكون الحامل له علىٰ ذلك غرض خسيس، ولا قصد مراءاة الناس وسمعتهم، ولا عصبية وطنية أو قومية أو جنسية؛ بل الحامل له عل ذلك إرادة رضا الله، وحصول ثوابه، ومن ثوابه ما يترتب عليه من المصالح النافعة.

وبهذا المعنىٰ الكلي العظيم؛ يتضح لنا أن القيام بجميع الأسباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظم ما يدخل في هذه القاعدة، فإن القيام بها عبادة لله ووسيلة إلىٰ عبادة الله، فكما يدخل في عبادة الله ما أعان عليها من السعي والمشي والركوب إلىٰ العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال من حلِّها للقيام بالزكوات وواجب النفقات، والقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال.

ويدخل فيها أيضا تعلم الفنون والصناعات العصرية، والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم وللسلامة من شرورهم؛ وذلك بحسب المستطاع؛ قال تعالىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠].

فكل ما يستطيعه المسلمون من إعداد القوة العقلية والصناعية والسياسية والفنون العسكرية وما أشبه ذلك؛ فإنه يدخل في عبادة الله وفي ما يعين عليها، فإنَّ الجهاد الذي هو بذل الجُهد في مقاومة الأعداء من أجل العبادات، فما يُعين عليه فإنه منه.

فبهذا يعلم أن المسلمين بالمعنىٰ الحقيقي أكمل الخَلْق في فعل الأسباب النافعة؛ لأنهم يُبدون فيها مقدورهم، مستعينين بالله في حصولها وفي تكميلها، وفي ما لا يقدرون عليه منها، وفي إنجاح أعمالهم، وحصول مقاصدهم. فليس بعد هذا الكمال الذي حثَّ عليه الدِّين الإسلامي كمالٌ، ولا فوقه مرتقىٰ؛ حيث يموِّه الدعاة إلىٰ الإلحاد أن الدين الإسلامي يثبِّط العاملين، ويضعف نفوسهم، وهذا من المكابرة والتجرِّي والكذب الصُّراح بمكان لا يخفي علىٰ من له أدنىٰ مُسكة من عقل.

فإذا تبين أن الدين الإسلامي الصحيح ويحث علىٰ القيام بالأسباب النافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها، والثِّقة به في تكميلها ونجاحها، فكم في الكتاب والسُّنّة من الأمر بفعل الخيرات، وترك المنكرات، والأخذ بجميع الأسباب النافعات.

فاعلم أن هاهنا طريقين ذميمين منحرفين في الأسباب، يبرأ الدين منهما كل البراءة:

أحدهما مذهب الجبرية؛ القائلين بأن العبد مجبورٌ علىٰ أفعاله، وأنَّ حركاته الاختيارية حركات اضطرارية، بمنزلة حركات الأشجار، وأنَّ الأسباب لا تأثير لها في مسبِّباتها، وأن الله يخلق عندها لا بها، ويوجد الأشياء باقترانها عادة، لا أنها طريق ووسيلة إلىٰ مقاصدها.

وهذا المذهب باطل شرعا وعقلا:

أما شرعًا؛ فإن الكتاب والسنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين؛ خيرها وشرها، وأنهم هم الذين يفعلونها طوعا واختيارا، لا قصرا واضطرارا، ومملوءان من ذكر أن الأسباب بها حصول مقاصدها، وهي الطريق الوحيد لسعادة الدنيا والآخرة، وأن الكسل عنها موجب للحرمان، والضعف فيها داعٍ إلىٰ الخسران، كما تقدم أن الشرع يحثُّ عليها غاية الحث مع الاستعانة بالله عليها.

وأما بطلان هذا القول عقلا؛ فلأنه من المعلوم بالضرورة أن أفعال العباد؛ بل والحيوانات تقع باختيارهم وإرادتهم، إن شاءوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تركوا، وأنه لولا أنَّ العباد تقع أفعالهم طوع اختيارهم لما كان للأوامر الشرعية والعرفية فائدة، فكيف يؤمر ويوجَّه الخطاب، إلىٰ من لا قدرة له علىٰ أفعاله؟ وكيف يوجه النهي واللوم علىٰ من لا يقدر علىٰ ترك النواهي؟، فهذا معلوم فساده بالضرورة من الشرع، وببداهة العقل.

وأعظم منه بطلانا وأشد فسادا: **مذهب الطبائعيين في الأسباب**، الذين يرَوْن الأسباب جارية علىٰ مقتضىٰ الطبيعة ونظام الكون، وأنها لا تعلُّق لها بقضاء الله وقدره، وأن الله لا يقدر علىٰ تغييرها ولا منعها ولا إعانتها.

وأهل هذا المذهب معروفون بالخروج عن ديانات الرسل كلهم؛ لأن هذا القول الخبيث مبنيٌّ [علىٰ] نفي الإيمان بالله، ونفي ربوبيته، والرب في الحقيقة عند هؤلاء هي الطبيعة، فهي التي تتفاعل وتتطور وتُحْدِث الأشياء كلها.

فهؤلاء المُلحدون لا يثبتون لله أفعالًا، ولا يثبتون أنه يثيب الطائعين بالنعم والكرامات في الدنيا والآخرة، ولا يعاقب العاصين بالنقم في الدنيا والآخرة، وينفون معجزات الأنبياء الخارقة للعادة كلها، وكرامات الأولياء؛ ويقولون: ﴿ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا ﴾[الجاثية:٢٤].

هذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب الذي تنزه عنه اليهود والنصارىٰ وكثير من المشركين، فضلا عن الدين الإسلامي، قد اغتر به بعض الكتاب العصريين، وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن يَنْسبوه إلىٰ دين الإسلام.

ودين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث، فهو في شقٍّ، وأديان الرسل في شقٍّ آخر.

الرسل والشرائع تثبت ربوبية الله وأفعاله وقضائه وقدره، وانقياد العالم العلوي والسفلي لإرادة الله وقدرته، وهؤلاء ينكرون ذلك.

والرسل والشرائع تثبت أن الأسباب والمسبّبات محلُّ حكمة الله، وأن الله قد جعلها علىٰ نظام حكيم، دال علىٰ كمال حكمة الله، وانتظام أمر الدنيا والآخرة، وأنه لا يمكن أحد أن يغيِّر سنن الله، ولا يحولها، وهذا فإنها تابعة لمشيئة الله وإرادته، لا يستقلُّ سبب منها إلا بإعانته، وقد يمنع بعض الأسباب، ويغير بعض الأسباب؛ ليري عباده أنه هو المتصرِّف المطلق.

فقد أوقع الله الأخذات الخارقة بالمكذِّبين بالرسل، وأكرم أنبياءه وأولياءه بالنجاة في الدنيا والآخرة؛ فأهلك قوم نوح بالطوفان، ونجَّا نوح ومن معه من المؤمنين، وجعل النار بردا وسلاما علىٰ إبراهيم، وأعطىٰ موسىٰ من الآيات كالحيَّة والعصا وفلْق البحر؛ ما فيه أكبر عبرة بأنه متصرِّف مطلق، و جعل عيسىٰ يبرأ الأكمه والأبرص ويحيي الموتىٰ بإذنه.

وأعطىٰ محمد ﷺ من الكرامات والخوارق الكونية ما لم يعطِ أحدا من الرسل، فانشق له القمر، وسلَّم عليه الشَّجر والحجر، ونبع الماء من بين أصابعه، واستقىٰ الخلق الكثير من الماء القليل، وأشبع الخلق العظيم من الطعام اليسير، وأبرأ الله بدعواته أمراض كثيرة، وأنزل الله الغيث بدعوته في قضايا كثيرة، وعصمه الله من الناس، ونصره في مواطن كثيرة نصرًا خارقا للعادة، ونصر الله أمته في مواطن كثيرة، وأكرم الله الرسل والأولياء في أمور خارقة للعادة.

وهذه الأمور كلُّها بما ينكرها أهل هذا المذهب الخبيث، فعُلم أنه منافٍ للإيمان بالرسل من كل وجه، وأنّ من زعم أنه يبقىٰ مع صاحبه من الإيمان شيءٌ فهو مغرور مكابر.

وأما بطلانه عقلا وفطرة؛ فإن العقلاء كلهم مُطْبقون علىٰ انقياد العالم العلوي والسفلي إلىٰ إرادة الله وقدرته، ولم يُنكر ذلك أحدٌ إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده.

وهؤلاء قد عُلم أن عقولهم قد مرجت، وأنكروا الأمور المحسوسة التي لا يزال الله يريها عباده في جميع الأوقات.

ومن فروع هذا المذهب، الإنكار بأن الله ينقذ المضطرين، ويجيب دعوات الدَّاعين، ويغيث اللهفات، ويكشف الكُربات، وإنما هي عندهم الأسباب تتفاعل وتتغالب، فجحدوا ما علم بالضرورة من شرائع الأنبياء، وما أقرَّت به الخليقة واعترفوا به وفُطروا عليه، وبذلك حكموا لأنفسهم بمفارقة

العقل والدين.

ومن فروع ذلك إنكار قصة آدم وإهباطه إلىٰ الأرض، وخلق الله إيّاه، وإيحائه إليه، وجميع ما تحتوي [عليه] قصته مع زوجه ومع إبليس، وإنكارُ أنه أول الإنسان، وزعموا أنَّ الإنسان في أول أمره مكث مدة طويلة لا يتكلّم، ولا يعبر عن ما في ضميره، ثم انتقل من ذلك الطور البهيمي إلىٰ طور الإشارات، دون التكلم باللغات، ثم مكث ما شاءت الطبيعة -لا ما شاء الله!-، فتطور وصار يتكلم، فجحدوا ما جاءت به الرسل، ونزلت به الكتب، واتبعوا ما تخرّصه المعطلون الملحدون الذين بنوا نظرياتهم علىٰ تخرّصات لا تنبني علىٰ العلوم المعقولة ولا العلوم المحسوسة.

ومن فروع هذا المذهب الخبيث أن هذا العالم لم يزل ولا يزال، وأنَّ الله لا يغيِّره ولا ينقل العباد من هذه الدار إلىٰ دار الجزاء، فأنكروا مقصود ما جاءت به الكتب السَّماوية والرسل الكرام، وما دلَّت عليه الأدلة العقلية الصريحة، التي لا تقبل رَيْبًا ولا إشكالا؛ فإن الطبيعة خلْقٌ من خلق الله، فهو الذي خلقها وطبعها ودبَّرها وسخرها، فتبًّا لمن جعلها ربه وإله، وهو يشاهد من آيات الله في الآفاق و في الأنفس أكبر الأدلة والبراهين علىٰ ربوبية ربّ العالمين، وأنّ جميع الموجودات منقادة لإرادته مصرفة بقدرته.

فبهذا التفصيل يتضح أن هذا القول الأخير ليس مذهبًا لأحد من المعترفين بالأديان، وإنما هو مأخوذ عن زنادقة الفلاسفة القائلين بقدم العالم، وأن الله لا يقدر علىٰ شيء، ولا يعلم شيئا من الجزئيات، ومذهب هؤلاء معروفٌ أنهم لا يصدقون برسالة أحد من الرسل، ولا يقرّون بشيء من الكتب.

وأما المذهب الذي حكيناه عن الجبرية فمع بطلانه فأهله أحسن بكثير كثير من أولئك؛ فإنهم ينتسبون إلىٰ الدِّين، ويعظمون الرَّسول؛ ولكن غلوا في القضاء والقدر، فسلبوا العبد قدرته ضلالا منهم وجهلا، مع إيمانهم بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والقدر خيره وشره؛ لكنهم سلطوا أعداء الرُّسل علىٰ المسلمين حيث نسبوا مذهبهم للدِّين والدِّين بريء منه، فحمل عليهم الفلاسفة وسفَّهوا رأيهم في هذا، وظنوا أنهم بذلك انتصروا علىٰ الدين، ولكن الدين الحقيقي يخطِّئ هؤلاء ويضلِّلهم، ويحثُّ العباد علىٰ القيام بالأسباب النافعة في الدِّين والدنيا، ويحضهم علىٰ الاشتغال فيها وعلىٰ الاستعانة بالله وبحوله وقوته.

وكذلك الدين الحقيقي والعقل الصحيح، يخبر أن ضلال هؤلاء الفلاسفة المعطِّلين في الأسباب أفظع من ضلال الجبرية، حيث جعلوا الأسباب مستقلة منقطعة عن قضاء الله وقدره، وأنكروا الأصول

السابقة العظيمة لهذا الأصل القبيح.

ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أولىٰ هذه القواعد التي عدَّها من الأصول العظام في دين الإسلام مبيِّنًا أن الدين كله مبني علىٰ عبادة الله وحده والاستعانة به وحده؛ فإنه جامع بين إقبال العبد علىٰ ربه ﷻ بقلبه تألهًا، وبين استعانته به ﷻ علىٰ الأفعال التي يريدها العبد.

وذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن هذا الأصل جاء مبيَّنًا في القرآن والسنة: فذكر أنه وقع في القرآن في مواضع متعدِّدة فقوله تعالىٰ: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾[هود:١٢٣]، وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ ٨٨﴾[هود]، وقوله: ﴿رَّبَّنَا عَلَيۡكَ تَوَكَّلۡنَا وَإِلَيۡكَ أَنَبۡنَا﴾[الممتحنة:٤]، فإن التوكل في الآي الثلاث يشير إلىٰ الاستعانة بالله ﷻ، والعبادة والإنابة في الآيات تشير إلىٰ عبادة الله ﷻ، فالعبد مأمورٌ بأن يعبد الله ﷻ، ومأمور بأن يستعين بالله ﷻ، **وحقيقة الاستعانة طلب العون من الله، ولا يكون كذلك إلا مع وجود التفويض الذي هو حقيقة التوكل**، ولهذا جعل المصنف الآيات التي ذُكر فيها التوكل دالة عل الاستعانة لتضمنها إياه، ثم ذكر من الأحاديث قوله ﷺ في حديث أبي هريرة في «مسلم»: «**احرص علىٰ ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز**» فإن الأمر بالحرص علىٰ ما ينفع أمر بعبادة الله لأن أنفع ما للعبد في قلبه هو عبادة ربه، إذا يوجد في قلوب العباد ضرورة وحاجة لا يسدها إلا عبادة الله كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ١٥﴾[فاطر] فالحرص علىٰ ما ينفع أعظمه حرص العبد علىٰ سد هذه الحاجة في قلبه، والضرورة اللازمة لنفسه وذلك بعبادة الله ﷻ.

وقوله في الحديث «**واستعن بالله**» تصريح بالاستعانة.

ثم ذكر ما جاء في حديث بن عباس عند الترمذي وإسناده حسن في وصيته له أن النبي ﷺ قال: «**إذا سألت فاسأل الله**» ومتعلقه العبادة، وقال «**وإذا استعنت فاستعن بالله**»، ومتعلقه الاستعانة، فالعبادة والاستعانة مأمور بهما شرعا في آي وأحاديث كثيرة، ولأجل جلالتهما جعل سر «الفاتحة» فإن الفاتحة هي أعظم سورة في القرآن الكريم، وأعظم ما فيها من الآي هو قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾[الفاتحة] الجامعة بين العبادة و الاستعانة.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه بتميم العبد عبادة الله واستعادته به تكمل أموره الدينية والدنيوية، فلا سبيل إلىٰ استيفاء العبد حوائجه ومصالحه في الدارين إلا بعبادة الله والاستعانة به.

ثم بين رحمه الله تعالىٰ حقيقة العبادة، فقال: فعبادة الله أن يقوم العبد بتوحيد الله وعبوديته الظاهرة

والباطنة؛ المالية والبدنية والمركبة منهما إلىٰ أخر ما ذكر، وسبق **أن عبادة الله شرعًا، هي تألـه القلـب لله، وحقيقة هذا التأله انجماع القلب علىٰ حب الله والخضوع له**، فإن العبـادة تـدور علـىٰ هـذين الأصـلين، الحب والخضوع، فإذا التئم القلب عليهما، كان مؤلهًا لله معظِّما له عابدا له دون سواه، وإذا جعـل ذلـك التأله القلبي لغيره وقع المرء في العبادة الشِّركية.

ثم ذكر المصـنف رحمـه الله تعـالىٰ أن مـن جملـة عبـادة الله ﷻ القيـام بالمصـالح الكليـة النافعـة للمسلمين في دينهم ودنياهم؛ لأن من الأصول المقررة أن الشرع جاء بتحصيل المصالح وتكثيرها؛ فهـو أصل أصيل في الشرع، وأحكام الأمر والنهي دائرة عليه، فإذا وُجد ما يحصل بـه خيـر ويكثـر كـان ذلـك مأمورًا به شرعا، فالدِّين متضمن الأمر بالمصالح الكلية التي يحصِّل بها الناس خير الدنيا والآخرة.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن ذلك القيام يكون مصحوبًا بثلاثة أمور.

أولها: (قوة الجد والاجتهاد بحسب ما يستطيعه العبد)، ويدل عليه قولـه ﷺ في حـديث أبـي هريـرة الآنف: «**احرص علىٰ ما ينفعك**» فالحرص يدل علىٰ طلب الجد والاجتهاد في إدراك الأمور؛ لأن حقيقـة الحريص أن يكون جادا مجتهدا في تحصيل مطلوبه.

وثانيها: (قوة الاعتماد علىٰ الله، في تيسير ذلك الأمر الذي يحاوله العبد)، ويدل عليه الأمر بالاسـتعانة بالله ﷻ في قوله ﷺ :«**واستعن بالله**»، وفي قوله الأخر: «**وإذا استعنت فاستعن بالله**».

وثالثها: (كمال الإخلاص لله)، بأن يجـرد العبـد مـن قلبـه كـل إرادة سـوىٰ طلـب مرضـاة الله ﷻ، **وحقيقة الإخلاص شرعًا تصفية القلب من إرادة غير الله**، فإذا صُفِّي القلب من إرادة غير الله فقد أتىٰ العبد بالإخلاص، ومن تلك التصفية طرد الأغراض الخسيسة ومراءاة الناس وتسميعهم والعصـبيات الوطنيـة والقومية والجنسية من القلب، فلا يوجد فيه شيء من هذه المعاني؛ بل يكون الحامـل للعبـد علـىٰ ذلـك إرادة رضا الله وحصول ثوابه.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه (بهذا المعنىٰ الكلي العظيم؛ يتضح لنا أن القيام بجميع الأسـباب النافعة، والقيام بما يتممها ويكملها هي من أعظـم مـا يـدخل في هـذه القاعـدة) لأن العبـادة كمـا تتقـدم تتضمن تحصيل تأليه القلب بما يحصُل به تعظيم الله وإجلاله، ومـن ذلـك القيـام بأحكـام الأمـر النهـي المتضمنة لمصالح الدارين، فإذا قام العبد بالأسباب الموصلة إلىٰ تلك المصـالح كـان قائمًـا بعبـادة الله ﷻ، كما ذكر المصنف أن (فإن القيام بها عبادة لله ووسيلة إلىٰ عبـادة الله، فكمـا يـدخل في عبـادة الله مـا أعان عليها من السعي والمشي والركوب إلىٰ العبادات، فيدخل فيها اكتساب الأموال مـن حلِّهـا للقيـام

بالزكوات وواجب النفقات، والقيام الأعمال النافعة التي لا تقوم إلا بالأموال.)، فالغايات المأمور بها شرعًا وسائلها تابعة لها، وهذا معنىٰ قول الفقهاء: **الوسائل لها أحكام المقاصد**، والصلاة مأمور بها ومن وسائلها المشي إليها لأدائها في مسجد جماعة فيكون المشي إليها مأمورًا به، وتحصيل مصالح الخلق في الدنيا والآخرة مأمور به شرعًا، فتكون الوسائل المفضية إليها مأمورًا بها شرعًا، (ويدخل فيها أيضا تعلم الفنون والصناعات العصرية، والاختراعات التي فيها استعداد المسلمين لمقاومة أعدائهم) فإن ذلك من جملة تحصيل المصالح العظيمة أو أسباب توصل إلىٰ تلك المصالح العظيمة.

وأراد رحمه الله تعالىٰ بذلك بيان أن مما يلزم المسلمين أن يتقووا بتعلم ما استحدث من العلوم التي يحتاجون إليها في إقامة الدنيا، فيكون تعلمها بقدر ما يفي بتلك الحاجة، فالمسلم مأمورٌ بالاستغناء عن غيره؛ لأن قوته في نفسه، ومن كمال قوته معرفته بما يستجدُّ من فنون وصناعات عصرية، إلا أن الاشتغال بها ينبغي أن يكون بقدر تلك الحاجة، فلا يزيد عليها؛ لأن المسلم لم يخلق للدنيا، وإنما خلق لعبادة الله ﷻ، فإنما يتخذ من الدنيا بلاغًا وزادًا إلىٰ الآخرة، وهذا معنىٰ ما ذكره أبو العباس ابن تيمية الحفيد في الرد علىٰ المنطقيين أن العلوم الدنيوية إذا زاحمت العلوم الدينية حرُم تعلمها؛ لأن المقصود من العلوم الدنيوية إنما هو سد الحاجة، فإذا زاحمت العلوم الدينية وكثرت صارت زائدة عن قدر الحاجة فمنعت من أجل ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن تعلم الفنون والصناعات العصرية مندرجٌ في ما أمر الله ﷻ به من إعداد القوة في قوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:٦٠] وأن ذلك مرهون بالقدرة والاستطاعة له، كما قال تعالىٰ: ﴿ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] فهم مأمورون بإعداد ما يستطيعونه من قوة عقلية أو صناعية أو عسكرية أو سياسية؛ فإنها داخلة في جملة من عبادة الله ﷻ لتعلقها بتحصيل ما تتوقف عليه مصالح عظيمة للمؤمنين في الدنيا والآخرة.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه يعلم مما سبق (أن المسلمين بالمعنىٰ الحقيقي أكمل الخَلْق في فعل الأسباب النافعة) فأجدر الخلق بالأخذ بالأسباب النافعة والحرص عليها هم أهل الإسلام، وهم فيها في أعلىٰ محل، وعلل المصنف ذلك بقسمة تلك الأسباب النافعة إلىٰ نوعين.

أحدهما: أسباب نافعة مقدور عليها، فما كان من هذا الجنس فإنه يبذلونه فيه طاقتهم مستعينين بالله ﷻ في تحصيله وتكميله.

والثاني: أسباب نافعة غير مقدور عليها، فهم يستعينون بالله ﷻ في الحصول عليها والتمكن منها.

وهذا ظاهر في حياة الناس، فإن المعارف والعلوم التي ينتفع بها الخلق منه شيء للمسلمين قدرة عليه ومعرفة به فهم يبذلون في ذلك وسعهم مستعينون بالله، وفيه شيء لم يحصلوه بعد، من العلوم العسكرية أو الطبية أو الصناعية أو غيرها، فلابد أن يحرصوا علىٰ الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ في تحصيله.

وفي ذلك تنبيه إلىٰ أن إدراك ذلك لا يكون بجودة العقول وقوتها والحصول علىٰ الدرجات العالية في المعارف الدنيوية، وإنما كل ذلك موقوفٌ علىٰ توفيق الله عَزَّوَجَلَّ للعباد بقدر استعانتهم به، فإذا قوي استعانة الخلق بالله عَزَّوَجَلَّ في تحصيل الأسباب النَّافعة مكنهم الله عَزَّوَجَلَّ منها، وإذا ضعُفت استعانتهم بالله عَزَّوَجَلَّ عليها ضعُف القدر الذي يحصل لهم منها وربَّما حُرموا من ذلك.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه بعد ذلك يُعلم بطلان ما موه دعاة الإلحاد بأن الدين الإسلامي يثبِّط العاملين ويضعف نفوسهم ويقعدهم عن البحث العلمي والاختراع كما يقال، وهذا هو الذي أشار إليه أرباب الشيوعية بقولهم: الدِّين أفيون الشعوب أي مخدرها، الذي يضعفها ويوهن قواها، ثم تعلق به من تعلق فروَّجوه في أهل الإسلام وأن الدِّين الإسلامي يضعف النفوس ويُعجز الخلق عن القيام بما فيه مصالحهم، حتىٰ شُهر عند الخلق أن ضعف التَّحصيل والبلادة مقترن بالمعارف الدِّينية، وهذا من الجهل العظيم، فإنَّ المعارف الدينية هي معارف الأنبياء، الذين هم أذكىٰ الخلق وأزكاهم عند الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وإنَّما ما يوجد عند الناس من هذا الأثر هو من صولة الباطل في زمن الإلحاد والشيوعية الذي أظل بظلاله فتعلق به من تعلق وأصاب الناس منه طشاش ورشاش بقي في جملة من القواعد والأفكار المنتشرة التي لا ينتحلها من يقول إنه شيوعي، ولكنها صارت عند الناس من المسلمات، كما ذكرت آنفا بالنسبة العلوم الشرعية إلىٰ البلادة وضعف التحصيل، ونسبة العلوم الدنيوية إلىٰ جودة الفهوم والعقول.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه إذا تبيَّن ذلك علم أن الدين الإسلامي الصحيح يحث علىٰ القيام بالأسباب النافعة، ويبعث الهمم والعزائم بالاستعانة بالله عليها، والثقة به في تكميلها ونجاحها، فكَمْ في الكتاب والسنة من الأمر بفعل الخيرات وترك المنكرات، والأخذ بجميع الأسباب النافعة كقوله تعالىٰ: ﴿ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ ﴾[البقرة:١٤٨] وقوله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الآنف الذكر: «**احرص علىٰ ما ينفعك**» فهذا يدلُّ أن الدين الإسلامي يحثُّ المؤمنين علىٰ الحرص الذي ينفعهم من أسباب الدُّنيا ولا يمنعهم منها، ولا يجعلهم بمنأًىٰ عنها.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ أن هاهنا طريقين ذميمين منحرفين في الأسباب، يبرأ الدين منهما كل البراءة:

فالمذهب الأول مذهب الجبرية، وهم الذين يزعمون أن العبد مجبور علىٰ فعله؛ أي لا اختيار له فيه، فهو لا يختار شيئا منه، وإنما جبره الله ﷻ عليه إقدامًا وإحجامًا، تعلُّمًا وجهلًا، رفعةً وضعة، فإنها كلها بيد الله وحده عندهم لا اختيار للعبد فيها.

ثم بين رحمه الله تعالىٰ بطلان هذا المذهب شرعًا وعقلًا؛ فبطلانه شرعًا من جهة أن (الكتاب والسنة مملوءان من ذكر إضافة الأعمال للعاملين خيرها وشرها، وأنهم هم الذين يفعلونها طوعًا واختيارًا، لا قصرًا واضطرارًا)؛ ويدل علىٰ ذلك الآية الآنفة التي هي سر الفاتحة؛ وهي قوله تعالىٰ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ۝٥﴾[الفاتحة]، فإن الفعل فيها أضيف إلىٰ العباد علىٰ إرادة كونهم مختارين لذلك، مريدين له.

ثم بيَّن رحمه الله تعالىٰ بطلان هذا القول عقلا؛ فقال: (فلأنه من المعلوم بالضرورة أن أفعال العباد؛ بل والحيوانات تقع باختيارهم وإرادتهم، إن شاءوا أرادوا وفعلوا، وإن أرادوا تركوا)، ووجه هذا الدليل هو ما يوجد بالضرورة في النفوس، فلا تستطيع النفوس أن تدفعه، وهذا معنىٰ قولهم: **معلوم بالضرورة أي تضطر النفوس إلىٰ العلم به والقطع، دون قدرة علىٰ دفعه**، فإن الخلق مؤمنهم وكافرهم، جنهم وإنسهم يعلمون أنه إن شاء فعلوا وإن شاءوا تركوا وإن شاءوا أقبلوا وإن شاءوا أدبروا، ولا يدفع هذا الضرورة إلا مكابر، فالذي يزعم أن العبد مجبورٌ علىٰ فعله، هو مكابر مدافع وجدان هذه الضرورة التي ينضمُّ عليها جنباه.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ أن المذهب الثاني في ذلك وهو (أعظم بطلانًا وأشد فسادًا مذهب الطبائعيين في الأسباب)، أي الذين يجعلون الأسباب جارية علىٰ مقتضىٰ الطبيعة ونظام الكون، فعندهم أن الأفعال التي يتحقق بها الخلق كيف ما كانت موكلة إلىٰ الطبيعة، والنظام الكوني؛ فالطبيعة هي التي تجري الخلق بقوانين ونواميس لها، وأهل هذا المذهب كما قال المصنف: (معروفون بالخروج عن ديانات الرسل، لأن هذا القول مبني علىٰ نفي الإيمان بالله ونفي ربوبيته)، فهم يجعلون الطبيعة بمنزلة الرب فهي التي تفعل وتخلق وتحدث وتنشأ لما لها من قوانين ونواميس، وهؤلاء الملحدون كما قال المصنف، (لا يثبتون لله أفعالًا ولا يثبتون) للفاعل جزاءً فهم ينفون ثواب الطاعة عن الطائع وثواب المعصية عن العاصي.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن (هذا المذهب الذي هو أبطل المذاهب الذي تنزه عنه اليهود والنصارىٰ وكثير من المشركين فضلًا عن الدين الإسلامي قد اغتر به بعض الكتاب العصريين) أي المنسوبين إلىٰ الدين الإسلامي، (وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن ينسبوه إلىٰ دين الإسلام)،

ولم ينسبوه إلىٰ دين الإسلام بالقول بأن الطبيعة هي الخالقة؛ لأن ذلك مما ينافي دين الإسلام قطعًا، ولا يروج علىٰ المسلمين مثل ذلك القول؛ ولكنهم نسبوه إلىٰ دين الإسلام بطرائق من أعظمها تعظيمهم للكونيات، وانبهارهم بالعلوم المتعلقة بها، فراج في كتاباتهم الإشادة بالعلوم الكونية وتعظيمها، وتعظيم أهلها ومدح الكفار وأحوالهم بما حصَّلوا من هذه العلوم الكونية، وهذا من جنس الاغترار بأحوال أهل الكفر، وهو الذي عناه المصنف ممن كتب في ذلك فعظَّم العلوم الكونية وعظم أهلها، ثم نسب ذلك إلىٰ الإسلام وجعل دين الإسلام معظما للعلوم الكونية، فتجد كثير من هؤلاء الكتاب ينسب الآيات والأحاديث الواردة في العلم إلىٰ فضل العلوم الدنيوية كعلوم الفلك أو علوم الفيزياء أو علوم الكيمياء وغيرها، وليست هذه الآيات فيها قطعًا؛ لأن العلم الممدوح في القرآن والسنة إنما هو علم الكتاب والسنة، وأما العلم الخارج عن الكتاب والسنة فإنما هو علمُ حاجة يمدح بقدر الانتفاع به والحاجة إليه، فهو من ضمن الأسباب النافعة التي يحصُل بها خير، فتكون مأخوذةً بطريق الاحتياج.

وممّا روج هذا عند المسلمين ما صار يسمىٰ بالإعجاز العِلمي الذي يجعلونه متعلقًا بالنظريات والأحوال المعرفية التي خصوا العلم بها، وتسمية هذا النوع بالإعجاز العلمي باطلة شرعًا ولغة، فإن لفظ الإعجاز عليه إيرادات، ثم إن الإعجاز العلمي في القرآن والسنة ليس مقتصرا علىٰ الفلك والفيزياء والكيمياء والجيولوجيا وأشباهها؛ بل أعظم الإعجاز العلمي هو علم الأمر والنهي، فالأمر والنهي هو من أعظم الإعجاز العلمي، واعتبر ذلك في حال المرأة في الميراث؛ إذ تارة ترث المرأة أكثر من الرجل، وتارة ترث المرأة [أقل] من الرجل ويلاحظ الشرع مواقع المرأة في الميراث قلة وكثرة، وهذا من أعظم الإعجاز العلمي وهو الحقيق بأن يكون إعجازًا علميًا أصلًا، وإنما هذا الذي يسمىٰ بالإعجاز العلمي هو من جملة الإعجاز الخبري أي من جملة خبر الله ﷻ عن أشياء عن ما في لفظ الإعجاز من الإشكال فإنه من مصطلحات المعتزلة التي دبت في كلام المتكلمين في هذه المسائل حتىٰ راجت، وفي بيانه في محل آخر.

والمقصود هنا الإشارة إلىٰ أن ما عناه المصنف، بقوله: (قد اغتر به بعض الكتاب العصريين وأرادوا من سفاهتهم وجراءتهم العظيمة أن يَنْسبوه إلىٰ دين الإسلام) هو بتعظيم العلوم الكونية والانبهار بها.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ أن (دين الإسلام وسائر الأديان بريئة من هذا القول الخبيث) وهو القول بأن الطبيعة هي التي تتفاعل وتحدث الأشياء؛ بل دين الرسل في شق لتضمنه إثبات ربوبية الله وقدره، ودين هؤلاء ومذهبهم في شق آخر.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ مما يدل علىٰ بطلان هذا القول شرعًا جريان الخوارق المخالفة للنواميس الكونية والأحوال الطبيعية وهو ما أجراه الله ﷻ علىٰ أيدي رسله، كإهلاك قوم نوح بالطوفان وإنجائه وحده وجعل النار الموصوفة بالإحراق بردًا وسلامًا علىٰ إبراهيم، وما وقع لموسىٰ ﷺ في أمر الحية والعصا وفلق البحر، وما وقع لنبينا ﷺ من انشقاق القمر وسلام الشجر والحجر ونبع الماء من بين أصابعه، فجريان هذه الخوارق مخالفٌ للنواميس الكونية والأحول الطبيعية، ولا يلتئم علىٰ علوم ذلك، فجريان هذه الوقائع علىٰ خلاف ما يعرفه هؤلاء من نواميس الكون؛ دال علىٰ إبطال كون الطبيعة مستقلة بنفسها، محدثة لأحوالها وتصاريفها، وإنما المحدث هو الله سبحانه وتعالىٰ.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ بطلان هذا المذهب عقلًا بعد بيان بطلانه شرعًا، فقال: (وأما بطلانه عقلا وفطرة؛ فإن العقلاء كلهم مُطْبقون علىٰ انقياد العالم العلوي والسفلي إلىٰ إرادة الله وقدرته، ولم يُنكر ذلك أحدٌ إلا من جحد الله ولم يثبت وجوده.)، ومما يقوي القول ببطلانه عقلًا فوق ما ذكره المصنف، تخلف هذه النواميس الكونية عندهم في بعض الأحوال، تخلف؛ أي تأخر هذه النواميس الكونية عندهم في بعض الأحوال، فإنهم ربما تواطئوا علىٰ جعل شيئًا خاضعًا لقانون من قوانين الطبيعة كما يقولون، ثم بعد ذلك يقع الأمر علىٰ خلافه، وأبين شيء في ذلك ما تصدح به تقارير فئام كثير من الأطباء في حالة طبية ما؛ بأنه لا يمكن مداواة المريض، أو شفاؤه لجريان العادة عندهم في ما عرفوه من أحوال الطبيعة بأنه يفيء إلىٰ حال الموت، ثم يُجري الله ﷻ بقدره وقضاءه ما يكون موجبًا لتخلُّف تلك النواميس والقوانين التي تعارفوا عليها، مما يدل مع حدوث هذا التأخر والتخلف لتلك النواميس العقل علىٰ أن هذه القوانين الطبيعية ليست مستقلَّة بنفسها، وإنما هي خاضعة لإرادة قادر هو الله ﷻ.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أشياء باطلة من فروع هذا المذهب؛ كـ(الإنكار بأن الله ينقذ المضطرين، ويجيب دعوات الدَّاعين)، ومنه أيضًا (ذلك إنكار قصة آدم وإهباطه إلىٰ الأرض، وخلق الله إيّاه، وإيحائه إليه، وجميع) جرىٰ بينه وبين زوجه وبينه وبين إبليس وأنهم يذكرون في نشأة الإنسان أقوالًا لا ترجع إلىٰ ما جاءت به الأنبياء، فهم يجعلونهم محولًا من طور البهيمية إلىٰ طور الإنسانية كما في بعض النظريات المعروفة التي تُرجع نشأته إلىٰ كونه قردًا في الأصل، فكل ذلك من فروع هذا المذهب الخبيث.

(ومن فروع هذا المذهب الخبيث) كما ذكر المصنف زعمهم (أن هذا العالم لم يزل ولا يزال) أي أنه لا يفنىٰ؛ بل هو سرمدي باق، وهذا معنىٰ قولهم المادة لا تفنىٰ، والله ﷻ يُفني ما شاء من خلقه بقدره

مما هو معروف بدلائله في القرآن والسنة، وموجب هذا لهم أنهم ألَّهوا الطبيعة، واقتضاء تأليهها جعلها سرمدية لا تنتهي.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنه يتضح مما ذكر عن هذا القول الباطل وهو قول الطبائعيين، أنه ليس مذهب لأحد من المعترفين بالأديان، سواء من أهل الإسلام أو من اليهود أو من النصارىٰ، وإنما هو مأخوذ عن زنادقة الفلاسفة القائلين بقِدَم العالم، وأنه ليس حادثًا، وأن الله لا يقدر علىٰ شيء وأنه لا يعلم شيئًا من الجزئيات وهؤلاء كفرة بنصِّ الكتاب والسنة.

وهذا المذهب الفلسفي القديم، عند الأوائل ثم عند الفلاسفة الإسلاميين كابن سينا وغيره ووصفهم بالإسلاميين معناه أنهم نشؤوا في التاريخ الإسلامي تطور إلىٰ أن وجد في صورته الحديثة بما روّج له الشيوعيون والملحدون والماديون في القرن السابق، وإنما هو مأخوذ عن المذاهب الرديئة للأوائل.

ومن القواعد النافعة في معرفة الأقوال والأحوال أن تعلم أن لكل قوم وارث؛ فإنه قل أن تجد قولا باطل يحدث في الناس إلا وهو ناشئ من قول باطل قديم كان فيهم، فكما أنَّ الأنساب تورث فكذلك الأقوال تورث، وربما ضعُفت في زمن وقويت في زمن أخر.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ الفر ق بين الجبرية والطبيعية؛ فبين أن الجبرية ينتسبون إلىٰ الدين، وأما الطبيعية فإنهم يُنكرون الدين ويتبرؤون منه.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ أنَّ الدين جاء بالرد علىٰ هؤلاء وهؤلاء؛ فهو يخطِّئهم جميعًا، ويحثُّ العباد علىٰ القيام بالأسباب النافعة في الدِّين والدنيا، ويحضهم علىٰ الاجتهاد فيها وعلىٰ الاستعانة بالله وبحوله وقوته عز وجل.

القاعدة الثانية الدِّين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله

وهذا الأصل الكبير الذي صرَّح به الكتاب والسنة في مواضع كثيرة؛ مثل قوله تعالىٰ: ﴿ٱتۡلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[العنكبوت:٤٥]، و﴿ٱتَّبِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُمۡ وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾[١] [الأعراف:٣]، ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْۚ﴾[الحشر:٧]، ﴿ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٠٦﴾[الأنعام:١٠٦]، ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ ١٢٣ وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكٗا﴾[طه:١٢٤]، ﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ١٦٤﴾[آل عمران]، ﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ﴾[آل عمران:٩٥]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ٨٧﴾[النساء]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا ١٢٢﴾[النساء]، ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ﴾ في مواضع كثيرة، ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾[الفاتحة] الآية، ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾[الأنعام:١٥٣]، ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ﴾[النساء:١١٥]، ﴿إِنَّا قَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡنَآ أَنَّ ٱلۡعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ٤٨﴾[طه]، ﴿لَا يَصۡلَىٰهَآ إِلَّا ٱلۡأَشۡقَى ١٥ ٱلَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ١٦﴾[الليل]، ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ٥٦﴾[المائدة]، ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣﴾[يونس]، ﴿وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ﴾[لقمان:١٥]، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدۡنَٰهُمۡ عَذَابٗا فَوۡقَ ٱلۡعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفۡسِدُونَ ٨٨﴾[النحل]، ﴿وَمَن يَعۡشُ عَن ذِكۡرِ ٱلرَّحۡمَٰنِ نُقَيِّضۡ لَهُۥ شَيۡطَٰنٗا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٞ ٣٦ وَإِنَّهُمۡ لَيَصُدُّونَهُمۡ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحۡسَبُونَ أَنَّهُم مُّهۡتَدُونَ ٣٧﴾[الزخرف]، ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾[سبأ]، ﴿وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ﴾[الشورىٰ:٥٢] الآية، فهذه الآيات الكريمات وأضعافها وأضعاف أضعافها دلَّت دلالات صريحة أنه يتعيَّن علىٰ الخلق اتباع ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب والحكمة، وأن الهدىٰ والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتباع ذلك، وأن في ضد ذلك الضلال والهلاك والشقاء في الدنيا والآخرة، وأن الصراط المستقيم الذي من سلكه في عقائده وأقواله وأفعاله وشؤونه الدينية والدنيوية هو سبيل الله الذي شرعه علىٰ لسان رسوله محمد ﷺ، من الإخبارات والأوامر

---

(١) في المخطوط: ﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم﴾[الزُّمَر:٥٥]، ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَۗ﴾ [الأعراف:٣]

والنواهي، وأن وظيفة المكلَّفين أن يصدِّقوا كل ما أخبر الله بـه ورسـوله ويطيعـوا الله ورسـوله في امتثـال الأمر واجتناب النهي، وأن السعادة والنجاة في هذا التصديق وهذه الطاعة، والشقاء والعـذاب في تكـذيب الأخبار والتولي عن الأمر والنهي، وأن من آمن وعمل صالحا، وسلك طريق الرسول فهو مـن أوليـاء الله وحزبه، ومن لم يؤمن بالله ورسوله ويعمل صالحا فهـو مـن أعدائـه وحربـه، وأنـه يتعـين سـلوك طريـق المنيبين إلىٰ الله في ظاهرهم وباطنهم، لا طريـق الغـافلين ولا المعرضـين، والمعارضـين الصـادين عـن سبيل الله.

فهذه النصوص ونحوها صريحة أنه يجب أن يكون الأصل الذي إليـه مرجـع المكلفـين كتـاب ربهـم وسنة نبيهم، وأن جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهـو الحـق والصدق والصواب، وما خالفه وناقضه فهو الضلال والشقاء، وأن مـن جعـل كـلام أعـداء الرسـل هـو الأصل، وغيره ما وافقه قبِلَه وما خالفه رفضه؛ هو محادٌّ لرسل الله، منابذ لدين الله، وأن في مقدمـة هـؤلاء الملحدين من دعوا إلىٰ رفض كل قديم، وجعلوه سلَّما لهم وطريقا لرفض الدين وعلومه وأعمالـه، وأن هذه دعاية إلحادية، القصد منها الدعاية إلىٰ نبذ الدين، واعتناق طريق الملحدين.

وأن أهل العقول الصحيحة والألباب السليمة، هم الذين يدعون إلىٰ رفض الشـرور والفسـاد وأنـواع الظلم، وإلىٰ الحثِّ علىٰ الخير والصلاح والإصلاح.

فهذا هو الأصل الذي يوافق عليه جميع العقلاء -أهل الأديان وغيرهـم-، وحيث كان هذا هو الميـزان الذي لا يمكن كلَّ أحد إلا الاعتراف به حتىٰ المنصفين من الأجانب.

فعلينا وعلىٰ الخلق كلِّهم أن يَعرضوا القديم والحديث علىٰ هذا الأصل الجليل، وحيثُ عرض علـىٰ هذا الأصل القديم والحديث وجد ما دلّ عليه الكتاب والسنة هـو الخيـر وهـو الهـدىٰ والسـعادة؛ لأنـه يدعو إلىٰ الخير؛ قال تعالىٰ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾[آل عمـران:١٠٤]، ﴿إِنَّـا لَا نُضِـيعُ أَجْـرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾[الأعراف]،[1] ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾[البقـرة:٢٧٧]، ﴿إِنْ أُرِيـدُ إِلَّا الْإِصْـلَاحَ مَـا اسْتَطَعْتُ﴾[هود:٨٨]، ﴿وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾[النحل:٩٠]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾﴾[البقـرة]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾[يونس]، فما ثم صلاح وخير ونفع دين ودنيوي إلا والكتاب والسنة قد حثّ عليه ورغَّب فيه وبين الطريق الموصلة إليه حتىٰ الفنون والاختراعات والصناعات الحادثة التـي

---

(١) في المخطوط: وإن الله يحب المصلحين.

فيها نفع للعباد وتقيهم من الشُّرور والفساد، وما من شرٍّ وضرر وفساد إلا وقد نهىٰ الدين الإسلامي عنه، سواء كان ذلك متقدِّمًا أو متأخرا.

وأما تعنُّت الملحدين الماديين بوجوب رفض القديم مطلقًا، واعتناق الجديد مطلقا، فهذا أصل لا يمكن أن يوافق عليه أحدٌ من العقلاء، لأن القديم منه طيب وخبيث، والجديد منه طيب وخبيث، فالطيب يجب قَبوله مطلقا، والخبيث يجب رفضه مطلقا، والطيِّب الذي في الحديث إنما استفيد مما دل عليه القديم من علوم وأخلاق وأعمال، فأصل الخير ومنبعه ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب.

ويقال لأهل هذه الدعاية الخبيثة: هذه دعاية لا يمكن أن يوافق عليها أحد، حتىٰ أنتم لا توافقون عليها! فإنكم تقبلون ما نقلتم عن أئمتكم، وتحثُّون علىٰ ذلك سواء كانوا من القدماء أو من الآخِرين، فأصلٌ لا يوافق عليه أحد من الخلق يجب أن نرفضه، وأن نرجع إلىٰ الأصول الدِّينية والأصول العقلية.

أما الأصول الدينية؛ فقد أريناكم بعض ما دلَّ عليه أشرف الكتب، وهو القرآن بوجوب اتِّباع كتاب الله وما دل عليه ما جاء عن رسول الله، وأنه الخير والحقُّ والهدىٰ، وما سواه شر وضلال وشقاء، وأما الأصول العقلية، فهلمَّ فلنتحاكم إلىٰ هذه الأصول التي لا يمكن عاقل[1] أن يقدح بها، ومن قدح فيها فهو مكابر:

نتحاكم إلىٰ الطيب والخبيث؛ فكل طيب من العقائد و الأخلاق والأعمال والمقاصد والوسائل فعلينا أن نقبله، وكل خبيث من ذلك فعلينا أن نرفضه وهلم فلنتحاكم إلىٰ الخير والصلاح والإصلاح وإلىٰ الشر والفساد فكل خير وصلاح وإصلاح فعلينا أن نقبله، وكل شر وفساد فعلينا أن نتركه.

هلم فلنتحكم إلىٰ ما يرقي الخلق ويعليهم في دينهم ودنياهم، وإلىٰ ما ينزلهم ويحلل أخلاقهم وآدابهم في دينهم ودنياهم، فنقبل الأول ونرفض الثاني.

هلم فلنتحاكم إلىٰ ما فيه نفع دينيٌّ ودنيوي؛ نفع حقيقي فنقبله، وما فيه ضرر ديني ودنيوي فنرفضه.

هلم فلنتحاكم إلىٰ ما آثارُه جليلة وعواقبه حميدة في الدنيا والآخرة فنقبله ونُقبل عليه، وإلىٰ ما آثاره ذميمة وعواقبة وخيمة فندعه ونرفضه.

هلم فلنتحاكم إلىٰ العدل وأداء الحقوق -في حقوق الله وحقوق عباده- فنقبله وندعو إليه، وإلىٰ الظلم وعدم أداء الحقوق الواجبة فلندعه ونتركه.

---

(١) في المخطوط: عاقلا.

فهذه الأصول العقلية الشرعية وما أشبهها لا يدعىٰ أحد للتحاكم إليها فيأبىٰ إلا دلّنا علىٰ سفاهته وحمقه ومكابرته، فالدِّين الإسلامي لا يأبىٰ التحاكم في علومه وأخلاقه وأعماله وآدابه كلها إلىٰ قضايا العقول التي يتَّفق العقلاء علىٰ صحتها وسلامتها؛ بل هو الذي دعا الخلق إليها وحثّهم عليها، فكيف يأبىٰ أن يحاكم إلىٰ ما تقتضيه أصوله وأسسه؟

وأما إطلاق المحاكمة إلىٰ القديم والحديث فهذا كما تقدَّم لا يوافق عليه هؤلاء؛ لأنها قضية مختلة متزعزعة عند الناصرين لها؛ لأنهم يتناقضون في رفض القديم والرد له، وفي قبول كل حديثٍ؛ فمنه أشياء يقبلونها، ومنه أشياء يرفضونها من وجه دالٍّ علىٰ فسادها من أنفسهم وحججهم، ووجه آخر: وهو أنهم إذا كانوا يرفضون القديم ويرغبون بالجديد، فهذه قضية أول ما يحظىٰ بإبطالها واصفوها، وذلك أنهم إذا أسَّسوا لهم أمورا يجرونها ويرونها هي الحق الذي يجب تقديمه ونصره، فإنَّه إذا جاء من بعدهم، فإما أن يتبعوا ما أسسه الأولون فينتقض أصلهم، وتصير الأمور الحادثة عند النشء الحديث لا يُعبأ بها، وإنمّا يحافظ علىٰ ما قاله الأولون، وهذا بعينه أكبر برهان علىٰ نفيها، وإن تسلسلت[1] هذه القاعدة عند النشء الذي بعدهم فيوجبون رفض ما قاله هؤلاء، واعتناق الأمور المتجددة لم يثبت بأيدي الناس حق يكون له الإثبات؛ بل ما أثبته هؤلاء نفاه الآخرون، وما نفاه هؤلاء أثبته الآخرون، فصاروا في أمر مريج، متهافت مختل الأصول والفروع. هذا من جهة ميزان هذه القضية الجائرة في عقول قائليها.

وأمَّا وزنها في الشرائع الدينية وفي العقول الصحيحة؛ فهي أرذل وأخسُّ من أن يقام لها وزن، وإنما هي أقوال صدرت من سفهاء الأحلام، ضعفاء العقول، أرادوا بها التمويه علىٰ الأغرار الذين لا قلب لهم، يستفتونه ولا ألباب صحيحة يزنون بها الأمور والقضايا، وإنَّما الموازين التي لا يقدح فيها أحد من العقلاء فتلك الأصول التي أشرنا لها وما أشبهها؛ فهي التي من قالها صُدِّق قوله، ومن حكم بها عدل حكمه، ومن استقام إليها هُدي إلىٰ صراط مستقيم، وهي الأصول التي لا يمكن نقضُها، وتجري مع الزمان والأحوال، لا تتغير لأنها حقائقٌ ثابتة صالحة للخليقة، موضوعة لنفعهم.

أمَّا المسلمون فليس عندهم أدنىٰ ريبٍ بأن دينهم هو الحق الذي لا تُعرف الحقائق إلا به، وهو الدِّين الذي رَسم للخلق حقائق الأشياء ودلهم عليها، وأرشدهم إلىٰ منافعها، ولا يستريبون أنَّ جميع أصول دينهم وفروعه وظاهره وباطنه، إذا وزنت بتلك الموازين الصحيحة ظهر نورها وجلالها وكمالها،

---

(١) في المخطوط: تَسَلْسُلَ.

ووجوب تقديمها علىٰ كل شيء.

وأمَّا المنحرفون عن الدين فربما يصير عندهم في هذا المقام مغالطات، ويدّعون دعوىٰ مجرَّدة عن البرهان أن مذاهبهم هي الموافقة لتلك الأصول، فعند ذلك يقال: ﴿هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١١١﴾[البقرة]، وبينوا الطريق التي يُعرف بها ما ادعيتم، ونحن نعلم علمًا مبنيًّا علىٰ البراهين والحقائق، أنه ليس لهم طريق صحيح إلىٰ تحقيق كلِّ قولٍ نابذوا به الدين.

ثم نقول علىٰ طريقة التنزُّل في مقام المناظرة إن الدَّعاوىٰ إذا تعارضت والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان: الدِّين الإسلامي، والعقل الصحيح.

أمَّا الأول: فإن كان المجادل بالباطل يدَّعي أنه مسلم؛ فإنه يقال له المسلم بإجماع المسلمين لا يصير مسلمًا حتىٰ يقدِّم ما جاء به الرسول من كتاب الله وسنة رسوله، علىٰ ما قاله الناس، فعلينا أن نتبع ما جاء في الكتاب و السنة، وما أشكل عليك -هل هو موافقٌ أم معارض؟-، وضحنا لك من أدلة الشريعة ما يوجب لك الرُّضوخ والانقياد التام، وربما كان فهمك قاصرًا عن دلالات النصوص، فيبين له دخول جميع المنافع والمصالح في نصوص الشَّرع، فإن انقاد لذلك فهو مسلم، ويصير طريق العقل مؤيِّدًا لطريق الدِّين والعقل.

أما الدِّين فإنه يبين له الأدلة والبراهين العظيمة التي لا تقاوَمُ ولا تصادم علىٰ نبوة محمد ﷺ، وعلىٰ الوحي الذي جاء به من عند الله، وهي أدلَّة في أعلىٰ ما يكون من القوة والوضوح والكثرة، وآيات نبوته ﷺ وبراهينها متنوعة؛ أخلاقه العظيمة التي أقسم الله بها بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ٤﴾[القلم]، بحيث إذا وضح بعضها عرف أنه لا كان ولا يكون أحد من عظماء الرجال يدانيه في الكمال والفضل والخصال الحميدة؛ التي يستحيل معها أن يكون متقوّلًا؛ بل تدل علىٰ أنه أصدق الخلق وأبرهم وأتمهم في كل فضلٍ وكمال، وما أمر به ونهىٰ عنه وشرعه فإنه مُحكم منتظم، لا يأمر إلا بكل معروف شرعا وعقلا، ولا ينهىٰ إلا عن كل منكر شرعًا وعقلًا، لا تجد في أحكامه اختلالا ولا سفها وعبثًا، ومنافاة للحكمة.

والقرآن العظيم الذي جاء به من عند الله فيه تِبيان كل شيء وهدًىٰ ورحمة، وفيه من العلوم والحقائق العظيمة ما لا يمكن أن يأتي عليه الوصف، ولا يمكن أن يأتي علم صحيح ينقض ما جاء به بوجه من الوجوه، ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ ٤٢﴾[فصّلت]، فيه علوم الأولين

والآخرين.

فمجرد نظر المنصف إلىٰ ما جبل الله رسوله ﷺ، عليه من الأخلاق، وإلىٰ أحكام دينه وكماله، وإلىٰ عظمة القرآن وما احتوىٰ عليه من المعجزات، ويضطرُّه إلىٰ تصديقه، وإلىٰ الخضوع لدينه وشرعه.

وإذا عُلم أنه رسول الله، وأنه الصادق المصدوق، الذي لا ينطق عن الهوىٰ؛ تعين قبول ما جاء به، وأن يكون هو الأصل الذي تُعرض عليه الأقوال والمذاهب فما وافقه فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل؛ لأنه إذا علم أنه رسول الله حقا كان ما جاء به حقا لا يمكن أن يعارض الحق ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس:٣٢].

فإنْ أبىٰ المناظر الانقياد إلىٰ شيء مما تقدَّم فعلىٰ وجه التنزُّل في المناظرة الدَّال علىٰ غاية الإنصاف وإقناع الخصم، فهلمّ إلىٰ التَّحاكم إلىٰ العقول الحرَّة المعروفة بالاعتدال، التي لم تتلوَّث بالتعصُّبات ولا بالقُصُود الفاسدة والأغراض السَّيِّئة، التي ليس لها قصدٌ إلَّا طلب الحقيقة والتَّسليم للحقائق.

ولا يستريب من وقَفَ علىٰ أصول الدِّين وتعاليمه العالية والأخلاق السَّامية، وآدابه الرَّفيعة أنَّه هو الذي يكفُل سعادة الدُّنيا الحقيقية التي تعدُّ سعادة، كما كان كفيلًا بسعادة الآخرة، ولا يعرِفُ ذلك حقّ المعرفة إلَّا من تتبّع الحقائق الدِّينيَّة وما تسمو إليه من رُقِيِّ القلوب والأرواح والأخلاق، وما يُعين علىٰ ذلك من المادّة الماليَّة والصِّناعية والسِّياسية، وما يقوِّي ذلك من الأمور المعنوية.

وبذلك يُعرف معرفة علىٰ وجه البَصيرة التي لا تردُّد فيها ولا ريب أنَّه يتعيَّن علىٰ الخلق اتِّباع ما أنزل اللهُ علىٰ رسوله من الكتاب والسنة عقلًا، كما تعيّن ذلك شرعًا، وتقدَّمت الإشارة إلىٰ بعض ما دلَّ علىٰ ذلك من النُّصوص.

وإنَّما قلنا ذلك وتنزَّلنا هٰذا التنزُّل الذي لا يُبقي لمبطله شبهة لأنَّه في هٰذه الأوقات طمّ الإلحاد، وفشت دعايته بين المسلمين، وصار يدعو إليه الأجانب، ويدعو إليه من تسمَّىٰ بالدِّين إما نِفاقًا وخداعًا وإمَّا أن يكون صنيعة لغيره وأجيرًا، وإمَّا أن يكون ليس له بصيرة، يسمع النَّاس يقولون شيئًا فقاله، وهٰذا كثير في أهل الصُّحف، الَّذين لا بصيرة لهم في الدِّين ولا يُبالون بسقوط صُحفهم عن الاعتبار الدِّيني؛ بل والأدبي.

ومن دعا بالطَّريقة التي شرحناها لم يلْقَ لدعوته معارضًا أصلًا، اللّٰهمَّ إلَّا لمن عُرفوا بالمكابرات وجحد الحقائِق والمغالطات التي لا تُسمن ولا تُغني ولا تُفيد شيئًا.

ولنذكر صورةَ مناظرة جَرَت بين رجلين كانَا رفيقين، وكانَا مسلمين يدينان بالدِّين الحقِّ علمًا وعملًا، فغابَ أحدُهما عن صاحبه مدّةً، ثم التقيا، فإذا هٰذا الغائب قد تغيَّرت أحواله وأخلاقه، فسَأَلَهُ صاحبه عن ذلك فإذَا هو قد تغلَّبت عليه دعاية المُلحدين الذين يدْعُون لنبذ الدِّين ورفض ما جاء به سيد المرسلين، فحاوله صَاحبه وقلَّبَهُ لعلَّه يرجع عن هٰذا الانقلاب الغريب، فعرف أنَّ هٰذه علَّةٌ ومرضٌ تفتقر إلىٰ استئصال الدَّاء وإنزال الدَّواء علىٰ الدَّاء، وأنَّ ذلك متوقِّف علىٰ معرفة الأسباب التي حوَّلته وإلىٰ تمحيصها وتخليصها، وتوضيح مرتبتها ومقابلتها بما يضادُّها ويقمعها.

فقال له مستكشفًا عن الحامل له علىٰ ذلك: ما هي يا أخي الأسباب التي حملتك علىٰ ما أَرَىٰ، وما الَّذي دعاك إلىٰ نبذ ما كُنْتَ عليه، فإنْ كان خيرًا كنتُ أنا وأنتَ فيه شريكين، وإلَّا كان غير ذلك، فأعرف من عقلك وأدبك أنَّك لا ترضىٰ أن تقيم علىٰ ما يضرُّك ويثمر لك الثَّمرات الرَّديئة؟.

فقال له: لا أخفيك العلم أنِّي قد رأيتُ حالة المسلمين حالة لا يرضاها ذووا الهمم العليَّة، رأيتهم في ذلٍّ وخمولٍ، وأمورهم مدبرة، وأحوالهم سيِّئة، ورأيْتُ في الجانب الآخر هؤلاء الأجانب قد ترقُّوا في هٰذه الحياة، وتفننوا في الفُنون والمخترعات العَجيبة المدهشة، والصِّناعات المتفوِّقة، فرأيتهم قد دانت لهم الأُمم، وخضعت لهم الرِّقاب، وصاروا يتحكَّمُون في الأمم الضَّعيفة بما شاؤوا، ويَعُدُّونهم كالعبيد والأُجَرَاء وأقلّ من ذلك، فرَأيتُ منهم العزَّ الذي بهرني، والتَّفنُّن الذي أدهشني، فقلتُ في نفسي: لولا أنَّ هؤلاء هم القوم، وأنَّهم علىٰ الحق، والمسلمون علىٰ الباطل ما كانوا علىٰ هٰذا الوصف الذي ذكرتُ لك، فرأيتُ أنَّ سُلوكي سبيلهم واقتدائي بهم خيرٌ لي وأحمد عاقبة. فهٰذا الذي صيَّرني إلىٰ ما رأيتُ.

فقال له صاحبه حين أبْدىٰ له ما كان مستورًا: إذا كان هٰذا هو السَّبب الذي حولك إلىٰ ما أرىٰ، فهٰذا يا أخي ليس من الأسباب التي يبني عليها العقلاء وأولو الألباب عقائدهم وأخلاقهم وأعمالهم، أمَّا تأخُّر المسلمين فيما ذكرتَ فليس ذلك من دينهم.

وقد علمتَ وتيقَّنتَ أنَّ دين الإسلام يدعو إلىٰ الصَّلاح والإصلاح والاستعداد بالقوَّة المعنوية والقوَّة المادِّية من كلِّ وجه إلىٰ قوَّة المسلمين ومقاومتهم لأعدائهم، وإلىٰ السَّلامة من كلِّ أضرارهم، وهو لا تزال تعاليمه وإرشاداته قائمة لدينا تنادي أهلها: هلمُّوا إلىٰ جميع الأسباب النافعة التي تُعليكم وتُرقِّيكم في دينكم ودنياكم، أفبتفريط أهل الدِّين تحتجّ علىٰ الدِّين؟! أليس هٰذا التفريط منهم يوجب علىٰ أهل البصائر منهم أن يكون خيرهم ونشاطهم وجهادهم الأكبر متضاعفًا لينالوا المقامات الشَّامخة ويبتعدوا من الهوَّة العميقة؟ أليس القيام التَّام والجهاد من أفرض الفروض وألزم اللَّوازم في هٰذه الحال؟

فالجهاد في حال قوة المسلمين وكثرة المشاركين له فضل عظيم يفوق سائر العبادات.

فكيف إذا كانوا في هٰذه الحال التي وصفت؛ فإنَّ الجهاد لا يمكن تعبير المعبرين عن فضائله ومناقبه، فإنَّه في هٰذه الحال يكون الجهاد قسمين:

* **قسم** منه فيه تقويم المسلمين وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم، وتعليمهم العُلوم النَّافعة وتهذيبهم بالأخلاق الرَّاقية، ولعل هٰذا أشقُّ النَّوعين وأفضلُهما.

* **وقسم** فيه مقاومة الأعداء وإعداد العُدد القَولية والفعلية والسِّياسية والدَّاخلية والخارجيَّة لمقاومتهم ومنازلتهم في ميادين الحياة.

أفحين صار الأمر علىٰ هٰذا الوصف الذي ذكرت، وصار الموقف حرجًا تتخلَّىٰ عن إخوانِك المسلمين، وتتخلَّف مع الجبناء والمخلَّفين، فكيف مع ذلك تنضمُّ إلىٰ حزب المحاربين، لا تكن يا أخي أرذل ممَّن قيل فيهم: ﴿تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ﴾[آل عمران:١٦٧]، قاتلوا لأجل الدِّين، أو ادفعوا لأجل الرَّابطة القومية، فأعيذك يا أخي من هٰذه الحالة التي لا يرضاها أهل الدِّيانات ولا أهل النَّجدات والمروءات، فهل ترضىٰ أن تشارِك قومك في حال عِزّهم وقوة عددهم وعديدهم، وتفارقهم في حال ذلِّهم ومصائبهم، وتخذلهم في حالةٍ اشتدَّت فيها الضَّرورة إلىٰ نصرة الأولياء وقمْع عدوان الأعداء، فهل رأيتَ يا أخي قومًا خيرًا من قومك، ودينًا خيرًا من دينك؟.

فقال ذلك المنقلب المنصوح: الأمر كما ذكرتُ لك، ونفسي تتوق إلىٰ أولئك الأقوام الذين أتقنوا الفنون والصِّناعات، وألَّفوا السياسات والحضارات، وترقُّوا في هٰذه الحياة.

فقال له صاحبه وهو يحاوره: أرفضت دينًا قيمًا كامل القواعد، نيِّر البرهان، يدعو إلىٰ الخيرات، ويحثُّ علىٰ طرق السَّعادة والفلاح، ويقول لأهله: هلمُّوا إلىٰ الفَلاح والنَّجاح، دين مبنيٌّ علىٰ الحضارات الرَّاقية الصَّحيحة، التي بُنيت علىٰ العدل والتَّوحيد، وأسِّست علىٰ الرَّحمة والحكمة والشَّفقة وأداء الحُقوق، وشملت بظلِّها الظَّليل وخيرها الطَّويل وإحسانها الشَّامل وبهائها الكامل ما بين المشارق والمغارب، وأقرَّ بذلك المُوافق والمُخالف.

أتتركها راغبًا في حضارات ومدنيَّات مبنيَّة علىٰ الكُفر والإلحاد، مؤسَّسة علىٰ الطَّمع والجشع وظُلم العباد، فاقدةٍ لروح الإيمان ورحمته، حضارة ظاهرها مزخرف[1]، وباطنها خراب، وتخالها تعميرًا

---

(١) في المخطوط: مزيف.

للوجود وهي في الحقيقة مآلها الهلاك والتَّدمير، ألم تر آثارَها في هٰذه الأوقات، وما جلبته للخلق من الهلاك والفناء والآفات.

فهل سمِعَ الخلق منذ أوجدهم الله لهٰذه المجازر البشرية نظيرًا أو مثيلًا؟؛ فهل أغنت عنهم مدنيَّتهم وحضارتهم من عذاب الله من شيء لمّا جاء أمرُ ربِّك، وما زادتهم غير تتبيب؟، فلا يخدعنَّك يا أخي ما ترىٰ من المناظر والزَّخرفة والأقوال المموَّهة والدَّعاوَىٰ الطَّويلة العريضة، فانظر إلىٰ بواطن الأشياء ولا تغرنَّك الظواهر، وتأمَّل النَّتائج الوخيمة، فهل أسعدتهم هٰذه الحضارة في دنياهم التي لا حياة لهم يرجون غيرها؟، ألم ترهم ينتقلون من شرٍّ إلىٰ شرور، وأنَّهم لا يسكنون في وقتٍ إلَّا وهم إلىٰ شرور فظيعة يتحفَّزُون؟.

ثم هَبْ أنَّهم مُتِّعوا في حياتهم ومُتِّعُوا بالعزِّ والرِّياسَات ومظاهر الحياة، فهل إذا انحزْتَ إليهم وَوَالَيتهم يُشركونك في حياتهم ويجعلونك كأنفسهم؟ كلَّا والله؛ إنَّهم إذا رضُوا عنك جعلوك من أخسّ خُدَّامهم وأقذر أُجَرَائهم، وآية ذلك أنَّك في ليلك ونهارك تكدح في خدمتهم، وتتكلَّم وتجادل وتخاصم علىٰ حسابهم، ولم نرهم رفعوك حتىٰ سَاووا فيك أدنىٰ قومهم وبني جنسهم، فالله الله يا أخي في دينك، والله الله في مروءتك وأخلاقك وأدبك، والله الله في بقية رَمَقِك، فالانضمام إلىٰ هؤلاء والله هو الهلاك.

فلمّا سمع هٰذا الكلام، وتأمّل جميع الطُّرق والوسائل التي تُنال بها الأغراض الصَّحيحة من أولئك الأقوام، فإذا هي مسدودة، عرف أنَّه في محنته هٰذه من جملة المغرورين، وأنَّ الواجب عليه متابعة النَّاصحين، وأنَّ الرُّجوع إلىٰ الحقِّ الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة خير من التَّمادي علىٰ الباطل الذي يحتوي علىٰ الضَّرر المبين.

فقال لصاحبه: كيف لي بالرجوع وأنَّىٰ لي وقد أظهرتُ الانحياز إلىٰ أولئك [و]النُّزوع؟.

فقال له صاحبه: ألم تعلم أنَّ من أكبر فضائل الإنسان أن يتَّبع الحق الذي تبيَّن له، ويدع ما هو فيه من البَاطل، وأنَّ الخطأ والزَّلل قلَّما يسلم منه بشر، ولكن الموفَّق الذي إذا وقع في المهالك طلب الوسيلة والطَّريقة إلىٰ كلِّ سبب يخلِّصه منها، وأنَّ من نعمة الله علىٰ العبد أن يقيِّض له النَّاصحين الذين يرشدونه إلىٰ الخير ويأمرونه بالمعروف، وينهونه عن المنكر، ويسعون في سعادته وفلاحه، ثُمَّ من تمام هٰذه النِّعم أن يوفَّق لطاعتهم، ولا يتشبه بمن قال الله فيهم: ﴿وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٧٩﴾﴾[الأعراف].

واعلم أنَّه ربَّما كان الإنسان إذا ذاق مذهب المنحرفين، وشاهد ما فيه من الغيِّ والضَّلال، ثم تراجع

إلىٰ الحقِّ الذي هو حبيب القلوب، ربَّما كان أعظم لوقعه، وأكبر لنفعه، فارجع إلىٰ الحق ثابتًا، وثق بوعد الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾[آل عمران].

فقال: الحمد لله الذي أنقذنا بلطفه وحسن عنايته من الهلاك والشَّقاء، ومنّ علينا بالسَّعادة والهدىٰ، فنسأل الله أنْ يُتمَّ نعمته علينا بالثَّبات علىٰ دينه، إنَّه جواد كريم.

فقال النَّاصح لأخيه لمّا رأىٰ ما يسرُّه من رجوعه إلىٰ الحقِّ: وأزيدك يا أخي بيانًا أنَّ هٰذه المظاهر التي نراها من الكفَّار قد نبَّهنا الله في كتابه أنْ لا نغتر بها، فلولا أنَّه تعالىٰ قد علِم أنَّها من طرق الغُرور ووسائل الخداع لما نبَّهنا عليها وأرشدنا وحذَّرنا أن نغترَّ بها، كما قال تعالىٰ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١٩٦ مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ۝١٩٧﴾[**آل عمران**]، ﴿فَلَا يَغْرُرْكَ تَقَلُّبُهُمْ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٤﴾[**غافر**] الآيات، [فبيَّن لنا] أنَّ هٰذا الاغترار مصيدة للجاهلين، وأنَّ الله أرىٰ عبادَه من وقائعه وآياته في الأمم الظَّالمة ما حصلت به العبرة، وأنَّ مَن بنىٰ أمره ومسالكه علىٰ الاغترار بما مُتِّعوا به فإنَّه جاهل، أحمق، عقله قاصر، ونظره قاصر، وأيضا فقد أخبر تعالىٰ في آياتٍ كثيرة أنَّه يستدرجهم فيما أعطاهم، فيغترُّون ويُغترُّ بهم، وهٰذا هو الواقع منهم وممن تعشَّق أحوالهم، وأنَّه تعالىٰ يمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.

ولسنا ننكر أنَّ الله أعطاهم أسبابًا عظيمة تدرك بها المطالب، لكن هٰذه الأسباب إن لم تُبْنَ علىٰ الحق والدِّين الحق صار ضررها أكثر من نفعها، هٰذا بالنَّظر إلىٰ الحياة الدُّنيا، وأمَّا في الآخرة فليس لهم في الآخرة من نصيب ولا خلاق.

ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، القاعدة الثانية من كتابه المتضمنة البيان بأن الدين الحق هو ما جاء به الرسول ﷺ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إذ المرء مفطور خلقة وجبلة إلىٰ طلب دين يدين به، فإن كل نفس بشرية تتشوف إلىٰ دين تتدين به؛ لما فُطرت عليه القلوب، من فقر حقيقي اضطراري وهو فقرها إلىٰ من تألهه؛ وهو الفقر المراد بقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾[فاطر:١٥] أي الفقراء في قلوبكم، ولا تسد هذه الفاقة إلا بأن يؤلِّه المرء معظمًا يجعل له حبه وخضوعه، وأجلُّ هذا التعظيم أن يكون ذلك التدين مصروفا لله ﷻ؛ بل لا يكون سد تلك الحاجة إلا بأن يلتئم القلب علىٰ عبادة الله ﷻ بالدِّين الحق الذي بعث الله به الرسل وخاتمهم هو محمد ﷺ.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ أن هذا الأصل الكبير صُرِّح به في آيات كثيرات مبينات الأمر للنبي

ﷺ ولمن آمن به أن يتبع المنزل إليه؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾[العنكبوت:٤٥]، وقال: و﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وعُلِّل ذلك بأن إتباعه يوجب للعبد الهداية وأن تركه يوجب للعبد الغواية؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾[طه:١٢٤]، وحذف المتعلق في قوله تعالىٰ: ﴿ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ ﴾ للإشارة إلىٰ عموم ذلك، فهو لا يضل في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يشقىٰ في الدنيا ولا يشقىٰ في الآخرة، ثم قيل في حقِّ المُعرض: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ وأُطلق دون ذكر محلها ليعم، فإن له معيشة ضنكًا في الدنيا وله معيشة ضنكًا في الدار الآخرة.

والآيات اللواتي أوردهن المصنف كلهن جار علىٰ تشييد علىٰ هذا المعنىٰ، فهن حقيقات بقول المصنف: (فهذه الآيات الكريمات وأضعافها وأضعاف أضعافها دلَّت دلالات صريحة أنه يتعيَّن علىٰ الخلق اتباع ما أنزل الله علىٰ رسوله من الكتاب والحكمة، وأن الهدىٰ والفلاح والسعادة والنجاة في الدنيا والآخرة في اتباع ذلك) وأن ضد ذلك من الضلال والهلاك والشقاء، يكون بمخالفة الكتاب والسنة ومشاقة رسول الله ﷺ.

ثم ذكر المصنف أن هذه الحالة المنعوتة في القرآن توجب علىٰ العبد أن يمتثلها فيلتزم الدين الحق، وهذا معنىٰ قوله: (وأن وظيفة المكلفين) يعني العباد (أن يصدقوا كل ما أخبر الله به ورسوله ويطيعوا الله ورسوله في امتثال الأمر واجتناب النهي).

ثم قال المصنف رحمه الله تعالىٰ: (فهذه النصوص ونحوها صريحة أنه يجب أن يكون الأصل الذي إليه مرجع المكلفين)، يعني العباد، (كتاب ربهم وسنة نبيهم، وأن جميع المقالات والأحوال والأعمال والعلوم توزن بهذا الأصل، فما وافقه فهو الحق والصدق والصواب، وما خالفه وناقضه فهو الضلال والشقاء، وأن من جعل كلام أعداء الرسل هو الأصل، وغيره ما وافقه قبِلَه وما خالفه رفضه؛ هو محادٌّ لرسل الله، منابذ لدين الله)، إذ دين الله يتضمن كون ما جاءت به الرسل هو الحق الحقيق والأصل الأصيل الذي يجب علىٰ العبد إتباعه والأخذ به، فإن جعل غيره هو الأصل الأصيل وعرض ما جاءت به الرسل علىٰ غيره فهو مبطلٌ محادٌّ لما جاءت به الرسل منابذ لدين الله ﷻ.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن في مقدم هؤلاء المنابذين للرسل الملحدين الدَّاعين إلىٰ رفض كل قديم، فإن من علائق دعوة أهل الإلحاد ضجيجهم باطِّراح القديم وعيب أهله؛ بأن سبب تخلفهم هو تقادم ما هم عليه، فهم لا يزالون مآلفون للقديم متمسكن بالعتيق، مما أوجب عند هؤلاء الملاحدة

أن يبنوا دعوتهم علىٰ رفض القديم، يريدون بذلك هدم دين الإسلام، وطلب المسلمين إلىٰ ترك ما هم عليه من الدين العتيق الذي تمسكوا به.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن هذه الدعوة، إلىٰ إبطال القديم ترد بطريق عقلي وطريق نقلي:

فأما الطريق العقلي، فرده رحمه الله تعالىٰ من وجهين:

أحدهما أن دعوىٰ رفض القديم عند هؤلاء الملاحدة أنفسهم متلجلجة متزلزلة غير ثابتة علىٰ قدم، فإنهم ربما قبلوا قديمًا ممَّن يعظِّمون وتركوا قديما ممن لا يعظمونه، فدل هذا أنهم يأخذون بالتشهِّي وأنهم لا يعولون علىٰ رفض القديم كله؛ بل هذه القاعدة التي ادَّعوها تبع لما يريدون، فهم مبطلون في دعوىٰ رفض القديم؛ لأنه يوجد في مسالكهم سواء في أبواب السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع أو غير ذلك ما هو مبنيٌّ علي القديم، كبعض الأحوال المالية والاجتماعية في الشيوعية نفسها؛ فإنها من دين مزدك أو غيره منه القدامىٰ، فهم مكاذِبُون في دعوىٰ رفض القديم.

وأما الوجه العقلي الثاني: فهو الإعلام بأن جديد قوم قديم قوم آخرين، فإن هؤلاء إذا شيَّدوا نظريات في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع زعموها تجديدًا اليوم، فإنه بعد مئين من السنين ستكون قديمًا، وهي حقيقة للرفض حينئذ؛ لأنهم شيدوا مقالاتهم علىٰ رفض القديم.

فبهذين الأصلين العقليين يبين بطلان قولهم، وأمَّا بالنظر إلىٰ الدليل الشرعي فهو ما اشتمل عليه دين الإسلام من المصالح العظيمة، وأنَّ دين الإسلام جاء بما فيه صلاح الخلق و دعاهم إلىٰ طلب ما ينفعهم، فالشرائع الدينية متتابعة متكاثرة في تعظيم ما ينفع الناس، وتحريضهم علىٰ ما فيه تحصيل السبيل الأقوم في رقي أخلاقهم وأحوالهم ونفعهم في دينهم ودنياهم، فالدِّين مكذِّبٌ لهؤلاء الذين يزعمون أن القديم يتقادم بأهله، فيمنعهم من تحديث أنفسهم والرُّقيِّ بها، فإن الدين الإسلامي بتعاليمه وأحكامه يرتفع بهؤلاء الخلق في كل زمانٍ ومكان إلىٰ ما فيه صلاحهُم ومصالحهم.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أنَّ هؤلاء يقال لهم علىٰ طريق التنزُّل في مقال المناظرة أنَّ الدعاوىٰ إذا تعارضت والأقوال إذا تناقضت فعندنا حكمان عدلان هما الدين الإسلامي والعقل الصحيح، وهما الدالَّان علىٰ براءة الإسلام من تخذيل الناس عن ما ينفعهم وحرمانهم مما فيه مصالحهم؛ بل دلائله متكاثرة كما سبق علىٰ إرشاد الناس إلىٰ ما فيه مصالحهم، وأن هذا الدين جاء مستوفيًا لما يرومونه، من وجوه النَّفع التي يرتفعون بها في أبواب الحياة وميادينها جميعًا.

ثم ذكر بعد ذلك رحمه الله تعالىٰ أنَّ هذا المناظر إن أبىٰ الانقياد إلىٰ ما تقدم علىٰ وجه التنزُّل في

المناظرة (فهلم إلىٰ التحاكم إلىٰ العقول الحرة المعروفة بالاعتدال، التي لم تتلوث بالتعصُّبات و لا بالقصود الفاسدة والأغراض السيئة)، فإنَّ العقول الحرة النزيهة المتجرِّدة إذا عُرض عليها حال الدين، تبيَّن لها أن هذا الدِّين منه ينبع السمو والرقي والتقدم في الأمور كلِّها، وفيه صلاح أحوال الناس في أموالهم وأبدانهم وأعراضهم، وأخلاقهم وعلومهم، ومعارفهم، فإذا عرضت الحقائق الشرعية الدينية علىٰ أرباب العقول أنصفوا وعلموا أن هذا الدين بريء من دعوة هؤلاء الذين يجعلون الدين مخذلًا مانعًا مما ينفع الناس من العلوم العصرية.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ عندما تواضع إليه من التنزُّل في كلام ذكره آنفا إن ما حمله عليه إبطال ما طمَّ من الإلحاد وفشا من دعايته بين المسلمين، وصار يدعو إليه الأجانب ويدعو إليه من تسمَّىٰ بالدين، نفاقًا وخداعًا أو صنيعة لغيره، أو أجيرًا له؛ حتىٰ فشا هذا الأمر في الناس وكثر ولاسيما في الصحف التي كما قال المصنف في وصف أهلها: (وهذا كثير في أهل الصحف الذين لا بصيرة لهم في الدين ولا يبالون بسقوط صحفهم عن الاعتبار الديني بل والأدبي) فجعلوها أبواقًا تنعق بمقالات أولئك العائبين للدِّين في القرن الماضي، ونسبته إلىٰ التخلف، وأنَّ السبب الأكبر في انتكاسة المسلمين وضعفهم وتقدم غيرهم، هو دينهم.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ قاعدة نافعة فقال: (ومن دعا بالطَّريقة التي شرحناها لم يلْقَ لدعوته معارضًا أصلًا، اللّٰهمَّ إلَّا لمن عُرفوا بالمكابرات وجحد الحقائِق والمغالطات التي لا تُسمن ولا تُغنِي ولا تُفيد شيئًا)، والطريقة التي شرحها هي بيان كمال الدين، ووفائه بمصالح الناس في الدنيا والآخرة، وهذه هي الجادة السالمة التي يبين بها بطلان أقوال الملاحدة، وترد ترهاتهم، وأما مواطأتهم علىٰ ما يقولون، وملاينتهم فيما يدعون فإنها لا تجدي علىٰ الإسلام شيئًا؛ بل هؤلاء إذا لوينوا وتعومل معهم بالمسامحة ازداد شرُّهم، وقد صار أكثر المعارضين لدعوات الإلحاد إنما يدفعونها ببيان رفق الإسلام ولطف الإسلام وسماحة الإسلام، واستيعاب الإسلام للآخر، وتنوع الثقافات فيه عبر أجياله.

وكل هذه دعاوىٰ مجملة فيها حق وفيها باطل، وإنما الجواب الكافي والترياق الشافي، هو بيان كمال الإنسان حتىٰ فيما عدَّه هؤلاء ظلما وتعديًا، فإذا أراد إنسان أن يُبين عن عوار مقالات هؤلاء، فلا ينبغي له أن يطأطأ رأسه مستحيًا من بعض الأحكام الشرعية، فتجده إذا لُجَّ عليه ببيان قطع يد السارق، وأن ذلك مثلة بالإنسان إذ كيف يعيش حياته المدنية وسط الناس وهو علىٰ تلك الحال؟ وجدت المجيب عنه بأنه يقول: إنَّ من الفقهاء من قال بإيجاد بدائل عصرية تناسب حال الناس، تكون وافية في تحصيل

مقصود الشرع من العقوبة، مع منع هذا الفساد، وعدم تعريض النفس البشرية للمُثلة وتشويه الصورة، وكل هذا من الجَهْل وضعف الديانة وعدم صدق الوفاء بالأمانة في إبداء الحقيقة الشرعية؛ بل إذا بُحث مع الإنسان في ذلك فإنه يأتي بما بين به الشرع، كما قال أبو العلاء المعرِّي وهو من أئمة هؤلاء:

يدٌ بخمس مئين عسجد وديت ... ما بالها قطعت في نصف دينار

فقال له القاضي عبد الوهاب المالكي:

عز الديانة أغلاها وأرخصها ... ذلُّ الخيانة فافهم حكمة الباري

فبمثل هذا يجاب أنها لما كانت أمينة كانت رفيعة وما خانت هانت، فهذا كمال الشرع، فالشرع يجعل للكريم مكانة وكمالا، ويجعل للمهين ما يليق به.

وأما أن يفزع إلىٰ قول بعض الفقهاء المعاصرين من استحداث بدائل عصرية في الاكتفاء بها عن قطع اليد موافقة لمثل هذه الدعاوىٰ؛ فإن هذا خيانة للشرع، ولا يفي أيضًا بالردّ علىٰ هؤلاء، فإن هؤلاء لا تنتهي سمومهم، ولا تسدُّ رياح شرهم إلا ببيان كمال الشريعة، وغرس ذلك في نفوس الناس، وأن هذه الشريعة الإسلامية جاءت بما به كمالُ حال الناس، سواء في أبواب السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، أو الأخلاق، أو العلوم والمعارف؛ ولكن النقص الحادث هو بسبب قلَّة العلم بحقائق هذه الشريعة، مما أوجد أقوالًا مردودة تنسب إلىٰ الشريعة لا تصلح لإصلاح حال الناس، فالدِّين اليوم بين هذين النارين:

بين جاهل لا يمكنه أن يعبر عن كماله.

وبين مخذول يساوم علىٰ أحكامه.

فمن أراد أن يسلك الطريقة الشرعية فليحرص علىٰ تبين كمال الشريعة.

وللعلامة محمد الأمين الشنقيطي رسالة نافعة في بيان كمال الدين في جميع أبواب الحياة، سياسة واقتصادًا وأخلاقًا وشريعة مطبوعة باسم «بيان كمال الدين الإسلامي»، وسبق إقراءها والتعليق عليها، في برنامج الدرس الواحد الأول أو الثاني. (١)

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ بعد ذلك مناظرة لطيفة نسجها بإرادة إقناع بعض من تعلَّق قلبه بترهات هؤلاء، وهي مناظرة ذكرها في هذا الرسالة، وذكرها أيضًا في «مجموع الفوائد»، وأفردت أيضًا باسم «مناظرة اجتماعية»، أراد بها الرد بأسلوب أدبي علىٰ من تعلق بمقالات المرجفين الملحدين

---

(١) الدرس الثلاثون، من برنامج الدرس الواحد الثاني. واسم الكتاب «الإسلام دين كامل»، وهو مفرغ علىٰ موقع التفريغ .

الظانين بالدين ظن السوء، الزاعمين أن الإسلام يخذِّل النفوس ويضعفها عن الوصول إلىٰ ما فيه الرقي في أبواب الحياة كلها سياسة واقتصادًا وأخلاقًا واجتماعًا.

وكان مما ذكره رحمه الله تعالىٰ في هذه المناظرة ما ذكره من أن الجهاد المأمور به علىٰ قسمين:

أحدهما (قسمٌ منه في تقويم المسلمين، وإيقاظ هممهم وبعث عزائمهم، وتعليمهم العلوم النافعة وتهذيبهم بالأخلاق الراقية؛ ولعل هذا أشقُّ النوعين وأفضلهما)، كما قال رحمه الله تعالىٰ وصدق، فإنه جهاد الحجة والبيان وهذا أفضل من جهاد السيف والسنان، كما قال ابن القيم: لأن القائم به قليل، والمساعد عليه عزيز، وهذا في هذه الأزمان أكثر وأكثر، فإنه قل من يشعل في المؤمنين ما يذكِي نفوسهم اعتزازا وافتخارا بدين الإسلام مبينًا لهم فضله، ومعظمًا لهم قدره ودال لهم علىٰ سمو رتبته وباثًّا بينهم علومه النافعة المتضمنة الأخلاق والأحكام الكاملة الوافية بما يحتاجونه حتىٰ صارت الحماسة الدينية والغيرة الإسلامية إما مصروفة في غير بابها أو مغلق عليها رَتاجها.

فتجد من يعبر عن أحكام الدين غير معتز به ولا مظهرا لفضائله، وربما إن كان له سهم كان له سهم لا يفي بحاجة الناس فيما يحتاجونه من تعلم دينهم، وهذا مما يوجب علىٰ العبد أن يحرص علىٰ القعود في مقاعد المجاهدين في تعليم الملة والدين، فإن الناس إلىٰ هذا أحوج وهم إليه أفقر، وكلُّ قطر من أقطار المسلمين قد طم فيه الجهل وعم، وغلبت عليه الأحوال المُردية، والمباعدة لأحكام الدين الإسلامي، ولا نجاة للخلق إلا بتعلُّمهم دين الإسلام، ولا مكنة لهم بتعلمه من الصحف والكتب؛ بل لابد من علماء معلمين هم ورثة النبي ﷺ، الذين يقومون مقامَه في الجهاد، وقد قال الله ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُواْ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِى ٱلدِّينِ﴾[التوبة:١٢٢]، فإن هذه الآية تدل علىٰ أن النافر هو المجاهد، وأن القاعد هو الذي يتلمس العلم في أصح القولين، وهو اختيار أبو العباس ابن تيمية الحفيد وتلميذه ابن القيم رحمه الله تعالىٰ.

فإذا عِيب طلاب العلم بأنهم يقعدون عن الجهاد كان الرد عليه بأن هذا غلطًا؛ بل هم يقعدون للجهاد ولا يقعدون عن الجهاد، فإن جهاد السيف والسنان لا مكنة منه إلا بامتلاء القلوب بالإيمان الصحيح، وأما إذا لم تمتلئ القلوب بالإيمان الصحيح والعلم النافع فإنها لا تُقْبِل علىٰ الجهاد، بل ربما شاركت فيه مدة ثم رجعت فصارت بوقًا من أبواق الإلحاد، وهذا يوجد ممن ذهب إلىٰ الجهاد كردّة فعلة نفسانية، ثم كان خلوًا من العلم ثم تمادت به الأيام حتىٰ ترك الصلاة بالكليّة، فلا يصبر علىٰ جهاد السيف والبنان، إلا من امتلأ قلبه بجلالة الدِّين وعظمته، وأنه الدين الحق الذي ينبغي أن يتعلمه الناس

وأن يجاهدوا عليه، بيانًا بالحجة والأدلة أولًا، فإن أبىٰ الناس أو طرأ عليهم من الشرور ما يحتاج إلىٰ جهاد السيف والسنان، كان المجرِّدون لجهاد الحجة والبيان هم أحق الناس أن يجرِّدُوا سيوفهم لجهاد السيف والسنان، وهذا شيء إنما يتأتىٰ مع طول المدة، وازدياد العِدّة مما يوجب علىٰ ملتمس العلم، أن يصابر نفسه وأن يجاهد وأن يعلم أنه قائمٌ في نصرة الشرع، وأنه إذا صدق الله صدقه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

ثم ذكر القسم الثاني وهو قوله: (**وقسم** فيه مقاومة الأعداء وإعداد العُدد القَولية والفعلية والسِّياسية والدَّاخلية والخارجيَّة لمقاومتهم ومنازلتهم في ميادين الحياة.) تبعًا لما أمر الله من إعداد القوة لهم، في قوله: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾[الأنفال:٦٠]، فكما يجب أن يكون في المسلمين من يعلمهم تعاليم شرعهم فإنه يجب أن يكون فيهم من يحملهم علىٰ مقاومة أعدائهم، وأن يحضَّهم علىٰ إعداد العدد القولية والفعلية والسياسية، والداخلية والخارجية، والأوَّل ألصق بالعلماء، والثاني ألصق بالأمراء، وكل أحد منهم عليه أمانة لا تبرأ ذمته إلا بالوفاء بها.

القاعدة الثالثة

الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرُّسل، وبه الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة

جميع الكتب التي أنزلها الله وجميع رسول أرسله الله، الأصل الذي انبنت عليه والدَّعوة التي دعت إليها هو: الإيمان بالله والإيمان بوجوده وإيجاده المخلوقات، والإيمان بما له من الأسماء الحسنىٰ وصفات الكمال، والإذعان الكامل لعبوديته، والافتقار إليه.

القرآنُ العظيم الذي هو أجلُّ الكتب وأعظمُها والمهيمن عليها حثَّ علىٰ هٰذا الأصل بالطُّرق كلِّها، ففيه من أسماء الله الحسنىٰ أكثر من ثمانين اسمًا، معرفتها ومعرفة معانيها تملأ القلوب إيمانًا ونورًا ويقينا وعلمًا وعرفانًا، هو أفضل ما حصَّلته القلوب، وأرقىٰ الاعتقادات النافعة.

قال تعالىٰ: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦ ﴾[البقرة].

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥ ﴾[البقرة]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَۖ ﴾[الحديد:١٩]، ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ في مواضع كثيرة يرتِّب

عليها خيرات الدنيا والآخرة، ويرتِّب علىٰ عدم الإيمان جميع الشُّرور الدنيوية والأخروية، ويخبر أنَّ الأعمال والتعبُّدات كلَّها ناشئة عن الإيمان، فمن امتلأ قلبه من الإيمان بالله كانت قوة عبوديته لله بحسب ذلك الإيمان الذي في قلبه، وكذلك إعْمال الأسباب النَّافعة التي تنفع الأفراد والشعوب لا يمكن العبد أن يقوم بها علىٰ وجه الكمال والصِّدق والإخلاص والبناء علىٰ الأصول النَّافعة إلَّا بالإيمان.

فالإيمان أصل الخير الدِّيني والدنيوي، وبه توزن الأمور، صالحها وطالحها.

وإذا أردت تفصيل هٰذه الجمل العظيمة والتمثيل لها علىٰ وجه يعترف به أهل العقول والألباب، فالأمور التي يحصل بها الرُّقي الحقيقي والسَّعادة والفلاح الاعتقاداتُ الصحيحة، والأخلاق المزكِّية للقلوب المطهرة للأرواح، الباعثة للهمم والعزائم إلىٰ كلِّ خير، والأعمال الصَّالحة النَّافعة في الدِّين والدُّنيا.

وهٰذه الأمور متلازمة، لا يتمُّ بعضها إلا ببعض، وبتمامها السَّعادة والفلاح، فإذا اعتقد العبد ما أخبرت به الرُّسل عن الله تعالىٰ، وأنَّ له الكمال المُطلق من جميع الوجوه، بكلِّ وجه واعتبار، وأنَّ الأشياء وجودها وبقاؤها وكمالها بالله تعالىٰ، ومنه تستمد كلَّ شيء، فعلم أنَّ الله هو الخالق وحده، وما سواه مخلوق، وهو الرَّازق المُحسن وما سواه مرزوق مضطرٌّ إلىٰ إحسان ربه وكرمه من كلِّ وجه، وهو المدبر المصرِّف للعالم العلوي والسُّفلي بحكمته وعلمه وعنايته وحُسن تدبيره، وهو بكلِّ شيء عليم، يعلم السِّر وأخفىٰ، لا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السَّماء، يسمع الأصوات ﴿ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ ﴾[الرعد:١٠]، ويرىٰ جميع ما حواه العالم العلوي والسُّفلي، لا يخفىٰ علىٰ نظره أدقُّ المخلوقات في أخفىٰ الأمكنة، وهو مع ذلك واسع الرَّحمة والجود والكرم والبرّ والامتنان، يُفيض الإحسان علىٰ مخلوقاته آناء اللَّيل والنهار، يده بالخير سحَّاء الليل والنهار، ما من دابة إلَّا هو آخذٌ بناصيتها وموصل إليها من بره وإحسانه جميع ما تحتاجه في وجودها وبقائها وتمام أحوالها، وهو مع ذلك قد أمر المخلوقات أن تنيب إليه وتسأله حاجتها، وتفْزَع إليه في جميع مهماتها وملماتها، فيجيب الداعين ويكشف كربات المكروبين، ويزيل الضُّر عن المضطرين، ويسوق الألطاف وأصناف البرِّ لعباده المنيبين.

فمتىٰ اعتقدت القلوب هٰذه الاعتقادات الصَّحيحة في ربِّها وإلٰهها فلابدَّ أن تنيب إليه بالخوف والرَّجاء والمحبَّة، وتمتلئ من تعظيمه والإيمان به، وتطلُب السَّعي في كلِّ أمر يرضيه، وتتجنَّب كلَّ أمر

يسخطه، فيضطرها هٰذا الأمر إلىٰ الإخلاص الذي هو روح الأعمال، فالمخلِصُ لله تنبني أعماله الظاهرة والباطنة علىٰ أن يكون الدَّاعي لها والباعث عليها هو الإيمان بالله، وغايتها الذي تنتهي إليه وتسعىٰ إليه طلَبُ رضاه، والتنعُّم بثوابه وخيراته، وبذلك يزول عن القلوب جميع الأخلاق الرَّذيلة من الرِّياء والنِّفاق والعُجب ومساوئ الأخلاق، وتتحلَّىٰ بالأخلاق الجميلة، من الحبِّ والإخلاص والطَّمع في فضل الله، والخوْفِ من عقابه، والصِّدق الكامل في طلب مرضاته، والإنابة التَّامة إلىٰ ربِّها في رغباتها ورَهباتها؛ لأنَّها تعلم أنَّه لا ملجأ ولا منجىٰ ولا مولىٰ ولا نصير إلَّا ربّها ومليكها، ويكون محبَّتها للخير الذي يقرِّبها إلىٰ مولاها مقدِّمة إلىٰ كلِّ محبّة، وترىٰ أنَّ قوتها وغذاءها وكمالها بهٰذه الإنابة وهٰذا الافتقار، وتعطِفُ بهٰذا التَّعبد علىٰ عباد الله، فتحبُّ للمسلمين ما تحبُّ لنفسها من الخير، وتسعىٰ لذلك بحسب مقدُورها، ثم إذا أصابتها النَّكبات وحلَّت بها المُصيبات فزعت إلىٰ ربِّها، ليكشف ضُرَّها، ويُثيبها علىٰ ما قدَّر عليها، وتطمع غاية الطَّمع في فضل رِّبها ورجاء رحمته وطلب ثوابه.

وبهٰذا المعنىٰ الَّذي تتَّصف به، وهٰذه العقيدة النَّافعة تهُون عليها المصيبات، وتخفُّ عنها المكروهات، لما تعلمُه من حكمة الله، واستناد الأمور إلىٰ تدبيره وقدرته، ولما ترجُوه من تفريج كُربها، لأنَّها تعلم أنَّه لا يفرِّج الكُربات ولا يُزيل الشِّدَّات إلَّا هو، ولما ترجُوه من الثَّواب الذي رتَّبه علىٰ المكاره والصَّبر عليها.

وأمَّا من لم يحصل له هٰذا الإيمان فإنَّه عند المصائب والملمَّات يجري له من الآلام القلبية والفظائع الرُّوحية والزَّلازل العظيمة ما لا يمكن التَّعبير عنه، وربَّما أنَّ بعض هؤلاء تصل به الحال إلىٰ إتلاف نفسه أو إلىٰ زوال عقله، لعدم ما يستند إليه ويرجوه، وكما أنَّ المؤمن الحقيقيّ يتلقَّىٰ المكاره والمصيبات بالصَّبر والقوَّة والطُّمأنينة للأسباب الَّتي أشرنا إليها، فإنَّه يتلقَّىٰ أوامر ربِّه بالقُوَّة والعزيمة الصَّادقة، ويؤدِّي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتَّمام بحسب استطاعته، ومع ذلك فإنَّه يعلم أنَّه لا يمكنه أنْ تتم له العبودية وأداء الحقوق الواجبة والمستحبَّة والمصالح الكلِّية والجزئية إلا بالسَّعي بالأسباب الدُّنيويَّة النَّافعة، وبالقيام بالقوَّة المعنويَّة والماديَّة، فانبعثت همَّتُه لداعي الإيمان وداعي العقل وداعي الفطرة إلىٰ ذلك، وأبدىٰ ما يقدر عليه في تحصيل ذلك، وعلِمَ أنَّ المقاصد لا تتم إلا بالوسائل، وأنَّ الوسائل التي تُعين علىٰ المصالح ممَّا أمر الله به وممَّا رتّب عليه الثَّواب وعلىٰ الاستهانة به العقاب.

فدخل في هٰذا جميع الأسباب الموجودة، والتي ستحدُث بعد ذلك، فعُلم بذلك أنَّ الإيمان المذكور هو الباعث علىٰ تحصيل خير الدَّنيا والآخرة، وأنَّ من لا يرجو ثوابًا من الله ولا يخشىٰ منه عقابًا، ولا له

إيمانٌ يستند إليه أنَّه ضعيف الهمَّة، ضعيف العزم النَّافع، وإنَّما تنبعث عَزَماتُه في تحصيل لذَّاته البهيميَّة وشهواته السُّفلية وطمعه الدَّنيء، فربَّما كانت قوَّتُه في هٰذه الأمور وأسبابه الماديَّة في تحصيلها فوق ما يتصوَّره المتصوّر، ويعبِّر عنه المتكلِّم؛ ولكن لا إيمانَ يستند إليه ولا غاية حميدة يرتجيها، ولا حياة أبدية يعمل لها.

فمن كانت هٰذه حالُه لم ينلْ في هٰذه الحياة طيِّبَها ولا نجح في تحصيل سعادتها، بقطع النَّظر عن الحياة الأخرىٰ فإنَّه ليس له في الآخرة من خلاقٍ ولا نصيب.

وبهٰذَا يتَّضح لنا ما عليه المُعرِضُون الآن عن الإيمان بالله، وأنَّ هٰذه المناظر وما مُتِّعوا به من الحياة ما هي إلَّا لذَّاتٌ مؤقَّتة تحتها ما شئت من الآلام والأكدار، وأنَّه لا غاية لها، وأنَّ المؤمنين بالله مهما تنقَّلت بهم الأحوال وتطوَّرت بهم الأمور فإنَّهم خير من هؤلاء وأحسن عاقبة، فلو وُفِّق المؤمنون للقيام الكامل بالإيمان علىٰ الوصف الذي ذكرنا لحازوا الحياة الطيِّبة في هٰذه الدُّنيا، والحياة التي أطيب منها في دار القرار.

وأزيدك أيضًا أنَّ الإيمان الذي وصفنا هو الذي يحثُّ صاحبَه علىٰ كلِّ خُلُقٍ جميل، ويزجره عن كلِّ خُلُق رذيل، فالإيمان يدعو صاحبَه إلىٰ الصِّدق في الأقوال والصِّدق في معاملته الخلْقَ، فمن لم يكن مؤمنًا هٰذا الإيمان لم تكن مطمئنًّا من أقواله ولا من معاملاته، وربَّما راعاك في شيء وكذبك في أشياء، وهو الَّذي يحثُّ علىٰ النُّصح لله ورسوله وكتابه وأئمة المسلمين وعامَّتهم.

فإيمان العبد يُوجب أنْ يبذل في هٰذه الأمور كلَّ ما يستطيعه مِنَ النُّصح ويقْدِرُ عليه، ومن لم يكن كذلك فأنت غير آمنٍ من غشِّه إن نصحك فيما يُظهر ويبيِّن فما الذي يمنعه أنْ يغشَّك فيما يظنُّ أنَّه لا يَبِينُ، ليس معه من الإيمان ما يعصمه من هٰذا الخُلُق الرَّذيل.

الإيمان المذكور يحمل صاحبه علىٰ الصَّبر والقوَّة والشَّجاعة والإقدام في المواضع التي يُحجم عنها ضعفاء النُّفوس الَّذين لا إيمان معهم، فالمؤمن بقوَّة إيمانه وتوكُّله علىٰ الله ورجائه لثوابه وعلْمه أنَّ الثَّواب الدِّينيّ والدُّنيوي والأخروي يكون بحسب ما قام به من واجبات الإيمان ومكمِّلاتِه وما قام به من الجهاد، ويسهِّل عليه القيام بالأعمال الشَّاقة، ويهوِّن عليه ما يلقىٰ من الأهوال والمعارضات، ولا يأخذُهم في ذلك لوم اللَّائمين، وقدح القادحين، ولا يصعب عليه ما أصابه من جرَّاء ذلك من المصائب، وكلَّما قوي الإيمان كان قيامه بهٰذه الأمور أعظم وأتمّ.

أمَّا من لم يكن معه ذلك الإيمان الصَّحيح فمن أين له الثَّبات علىٰ الصَّبر وعلىٰ المقاومات الشَّاقة،

نعم قد يكون له صبر [بعض] الأوقات في تحصيل أغراضه السُّفلية، وشهواته النَّفسية، وقد يكون عنده من الشَّجاعة والقوَّة في تحصيل ذلك [...]؛ ولكن حاله ما أرذلها وأخطرها وأقلَّها بقاءً، فإنَّ الوسائل تابعة لمقاصدها؛ فأين من كانت مقاصده أجلُّ المقاصد؛ نصْر الدِّين وإعانة المؤمنين وقمع أعداء الدِّين، [...] ومقاومة الباطل وتحصيل الفلاح الأبدي والسَّعادة السَّرمدية، والقيام بحقوق [الله ...] كلِّيِّها وجُزئيها؟ أين هٰذا ممَّن نهايته إدراك رياسة مؤقتة ولذَّات [فانية ... مشوبة بـ] الأكدار، وكان عاقبتها الهلاك والبوار؟ فوالله إنَّ بين حاليهما لكما بين [المشارق والمغارب].

الإيمان المذكور يحمل صاحبه علىٰ العدل، وينهاه عن الظُّلم، فإنَّه يعلم أنَّ إيمانه لا يتحقَّق [...] إلَّا بذلك.

وأمَّا من عُدِمَ الإيمانُ فأين العدل الذي يتأسَّس عليه؟ فما تأسَّس العدل إلَّا [علىٰ الإيمان بالله واتِّباع الرَّسول و(إرشاد) [(١)] الكتب السَّماوية، وإلَّا فطبيعة الإنسان الظُّلم والفوضوية لا في جماعاتهم ولا [في أفرادهم، وأمَّا ما] لم يتأسَّس علىٰ العدل فليس من الدِّين، وكيف تأمن من لا إيمان له أن يظلمك في دمك ومالك [...فإنَّ] النُّفوس مجبولة علىٰ محبة الأثرة إنْ لم يكن معها إيمانٌ يردعها [...] وعلم صحيح وعدل يحجزها.

الإيمان الموصوف بما ذكرنا كما أنَّه يدعو أهله [إلىٰ الأخلاق الحميدة وينهاهم] عن الأخلاق الرَّذيلة، ويحثُّهم علىٰ الآداب الحسنة، فكذلك يحثُّهم [علىٰ ما ينبغي أن يكونوا بمقتضىٰ الأخوة] [(٢)] الدِّينية والحقيقة الإسلامية عليه من فنون الصِّناعات وأنواع [المخترعات الحديثة...و]الاستعداد للأعداء بجميع الوسائل النَّافعة علىٰ حسَب الحال المقتضية [لذلك، فيحذِّرهم من الركون إلىٰ الخمول] [(٣)] وإلىٰ الكسل والضَّعف، وأن يكونوا كَلًّا علىٰ غيرهم، كذلك يحثُّهم [علىٰ تحقيق الأخوة الإيمانية وفعل] [(٤)] ما تقتضيه المصلحة، وعلىٰ جمع كلمة المسلمين، واتِّفاقهم علىٰ [الحقوالهدىٰ...] [(٥)]، فالمؤمنون بالمعنىٰ الحقيقي يقومون بهٰذه الأمور لداعي الدِّين [... والمصلحة،]

---

(١) زيادة من المخطوط.

(٢) غير ظاهرة في المخطوط.

(٣) غير ظاهرة في المخطوط.

(٤) غير ظاهرة في المخطوط.

(٥) غير ظاهرة في المخطوط.

إذا قام غيرهم فيها للأمر الثَّاني فقط، ولكنه لمصلحة دنيوية [حسب القدرة في نيلها، يخشون][(١)] أنْ يسبقهم هؤلاء القوم في تحصيل الفنون العصريَّة التي [فيها الغلبة والنصر علىٰ الأعداء][(٢)]، وفيها المقاومة والاقتدار علىٰ المهاجمة، وعند المسلمين من الدَّواعي [الإيمانية ...] وطلب المصلحة ما ليس عند غيرهم، واللَّوم موجّه إلىٰ المؤمنين، فليس لهم عذر عند الله ولا عند خلْقه، ولا تعذرهم نفوسهم الأبيَّة ولا أخلاقهم وتعاليمهم الدِّينية الإيمانية.

إذا كان الإيمان الحقيقي يدعو إلىٰ هٰذه الفضائل ويزجُر عن جميع الرَّذائل اتَّضح أنَّه الطَّريق الوحيد والصِّراط الأقوم للسَّعادة الحقيقيَّة والرُّقِيِّ الحقيقي، وأنَّ ما نراه في بعض الأمم الفاقدة للإيمان ليس إلَّا كالسَّراب حتَّىٰ إذا جاءه المُنْصف وحقَّق أمره لم يجده شيئًا، حتىٰ قال بعض منصفيهم في هٰذا المقام: "إنَّ النَّاس كانوا ولا يزالون يطلبون الحقَّ، ولم يكونوا في زمان أبعد عنه في هٰذا الزَّمان"، يريد بذلك قومه، فما هم عليه من مظاهر السَّعادة الدُّنيويَّة فإنَّ حشوه الآلام الشَّاغلة لقلوبهم أجمعين ما يرحمهم لأجله المقْصِرُون عنهم، ويُزهِّد الرَّاغبين في مثلها لهم، ويصُدّهم عن اتِّباعهم، والسَّبب بُعْدُهم عن الإيمان والحقِّ، ونزوع أنفسهم إلىٰ الباطل، وهرولتهم خلف دواعي الشَّهوة.

والسَّبب الأصلي في ذلك كلِّه خُلُوّ نفوسهم من الرُّكون إلىٰ الإلٰه الواحد؛ خالق الجميع ورازق الأحياء، ومقدِّر الأسباب لمكاسبهم، فهٰذه الأحوال والظَّواهر التي لم تُبْنَ علىٰ الإيمان هل يقول صحيحُ العقل: إنها حياة سعيدة! والقلوب قلقة!، والنُّفوس محترقة؟! وإنَّما الرَّاحة والحياة الطيِّبة راحة المؤمنين الذين اكتسبوا راحة الضَّمائر، وطمأنينة السَّرائر، والرِّضا الحقيقيّ مع السَّعي الجميل في طلب المنافع والمكاسب، فالمؤمن حيث تجده تجد هٰذا الوصف منطبقًا عليه، فهو سعيدٌ وإن كان بين الأشقياء، حكيمٌ وإنْ وُجد بين السُّفهاء.

وأمَّا من أخذ اسم الإيمان رسمًا، ولم يتحقَّق به عقدًا ولا خُلُقًا ولا أدبًا فلم تُضمن له الحياة الطَّيِّبة.

ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، القاعدة الثالثة من القواعد التي شيد عليها دين الإسلام، وهي متضمنة البيان بأن (الإيمان بالله هو الأصل الذي دعت إليه جميع الرسل)، فجميع الرسل جاءوا علىٰ أقوامهم يدعونهم إلىٰ الإيمان بالله وحده ربًا معبودا له الأسماء الحسنىٰ والصفات العلىٰ، وبهذا الإيمان

---

(١) غير ظاهرة في المخطوط.

(٢) غير ظاهرة في المخطوط.

يكون (الرقي الحقيقي في الدنيا والآخرة)، فالمقامات العالية والمنازل السامقة في مراتب الدنيا والآخرة لا تنال إلا بالإيمان.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، ما جاء في القرآن من الأمر بالإيمان أنه طافح بذلك علىٰ طرائق عدة، تارة بذكر أسماء الله الحسنىٰ فيه التي تعرِّف العبد بربه و تزيده إيمانًا به، وتارة بالأمر بالإيمان بالله ﷻ، وتارة بمدح المؤمنين به، كما في قوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ﴾ [الحديد:١٩].

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، أن هؤلاء الآيات تدل علىٰ أن الذي يترتب عليه خير الدنيا والآخرة هو الإيمان بالله سبحانه تعالىٰ، فالأمر كما قال: (فالإيمان أصل الخير الديني والدنيوي، وبه توزن الأمور صالحها و طالحها)، انتهىٰ كلامه، فلا سبيل إلىٰ ارتفاع الناس وارتقائهم وحوزهم خير الدنيا والآخرة، إلا بالإيمان، واعتبر ذلك بقوله ﷻ: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ ٨٢ ﴾[الأنعام]، فهذه الآية تدل علىٰ أن الأمن لا يقام في الخلق إلا بالإيمان، فرقي الناس في أحوالهم الأمنية، بقدْرِ إيمانهم بالله ﷻ.

ثم ذكر المصنِّف رحمه الله تعالىٰ أنَّ ما يتعلَّق بالإيمان بالله عز وجل وما يورثه في النَّفس، يأخذ بعضه برقاب بعض، فإذا امتلأ القلب بالإيمان طلب الأخلاق الفاضلة، والاعتقادات الصحيحة، التي يخلو بها قلبه من إرادة غير الله عز وجل، فإذا كان صادق الإيمان أوجب له ذلك الإخلاص، **وحقيقة الإخلاص أن لا يكون راغبا في شيئا من مدح الناس ولا ثنائهم ولا دنياهم**، فإذا أُفرغ القلب من هذا أوجب له أن يلتزم بالحقوق التي عليه وأن يأخذ ما له من حق دون ظلم ولا تعدي من الخلق علىٰ الخلق، وأوجب له ذلك أيضًا أن يزول من قلبه جميع الأخلاق المنافية للإخلاص؛ كالرياء، والتسميع، والنفاق، والعجب والخداع، والحسد، الحقد والكراهية و غيرها من مساوئ الأخلاق، فإنما تندفع من القلب علىٰ قدر إيمان الإنسان، لأن المؤمن لا يرضىٰ أن يلطخ قلبه بشيء من هذه القاذورات، فامتلاء القلب بالإيمان يدفع عنه كل رديء فاسد من هذه الأخلاق، ومنشأ ذلك عقيدته الصحيحة.

ثم ذكر المصنف أن العقيدة النافعة تهون علىٰ العبد المصائب، وتخف عنها المكروهات؛ كما قال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ ﴾[التغابن:١١]، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضىٰ ويسلِّم، فإذا تبوَّأ الإيمان الله من القلب محلَّه هون علىٰ العبد المصائب؛ لأنه يعلم أنها ألمت به بقدر الله عز وجل، فليس له إلا التسليم لأمره، وفي هذا المعنىٰ ما أخرجه مسلم في «صحيحه» من

حديث عبد الرحمن بن أبي ليلىٰ عن ثابت عن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ قال: « **عجبًا لأمر المؤمن إن أمره كله خير؛ إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له**».

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، أن الإيمان كذلك يوجب للعبد أن يتلقىٰ أوامر ربه بالقوة والعزيمة الصادقة، وأن يؤدِّي حقوقه وحقوق خلقه بالكمال والتمام، بحسب استطاعته، فكما أنه يدفع ألم المكاره بإيمانه الذي يُثمر صبره عليها، فكذلك يحمله إيمانُه علىٰ أن يقوم عازمًا بأداء ما افترضَه الله عليه من أوامر تتعلَّق بحقه عَزَّوَجَلَّ أو بحقوق خلقه.

ثم ذكر المصنف أن الإيمان المذكور يعني الكامل الصحيح، هو الباعث علىٰ تحصيل خير الدنيا والآخرة، فكل خير الدنيا والآخرة مرهون بإيمان العبد.

ثم ذكر المصنف زيادة أن الإيمان الذي وصفه هو الذي يحث صاحبه علىٰ كل خلق جميل، ويزجره عن كل خلق رذيل، فالإيمان يدعو إلىٰ معالي الأخلاق ومكارمها، ويحذِّر وينفِّر من مساوئ الأخلاق ورذائلها، فكما يوجب للعبد عزمةً علىٰ الأمر والنهي امتثالًا في الفعل والترك، فإنه يُثمر في قلبه أيضًا التحلي بالأخلاق الفضالة، والتخلِّي عن الأخلاق الرذيلة.

ثم ذكر أيضًا أن الإيمان المذكور يحمل صاحبه علىٰ الصَّبر والقوَّة والشجاعة والإقدام في المواضع التي يحجم عنها الضعفاء؛ كما عرض للنبي وأصحابه رضي الله عنهم في ما ذكره الله عَزَّوَجَلَّ في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُواْ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُواْ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[آل عمران]، فإن إيمانهم الصادق، رزقهم الصبر والقوة والشجاعة، والإقدام في موضع يحجم عنه الشجعان.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن الإيمان المذكور يحمل أيضًا صاحبه علىٰ العدل، وينهاه عن الظلم، وأنه إذا عدم الإيمان عدم العدل، لأن العدل يتضمن الحكم بين الناس بالسوية، وأن لا يقدم أحد علىٰ أحد لحظ نفسه، ولا يكون ذلك إلا بتعظيم الله بالإيمان به.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ أن الإيمان الموصوف يحث أيضًا الناس علىٰ ما ينبغي أن يكونوا عليه بمقتضىٰ الإخوة الدينية والحقيقة الإسلامية من التراحم والتوادد، وتقوية أنفسهم بما يحتاجون إليه من فنون الصناعات وأنواع المخترعات، وجِماع ما سلف أنَّ الإيمان داع إلىٰ كل فضيلة ومانعٍ من كل رذيلة، فهو الذي به صلاحُ حال الناس.

وللمصنِّف نفسه رحمه الله تعالىٰ فصلٌ ماتع في آخر كتابه «أهم المهمات» في صفات المؤمن[١]، وقد علقنا عليه بسطًا بما يناسب المعاني المذكورة هنا، في ذلك المحل، فمن أراده فإنه يطلبُه من محله المذكور.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن ذلك الوصف، المقدم ذكره للإيمان في ما ينتجه ويثمره، يوجب علىٰ الخلق أن يُقبلوا عليه وأنهم إن عدلُوا عنه فمهما تقلبوا في أنواع من الرُّقي الظاهر، فإنهم لا يزالون في عذابٍ باطن، فإن أشد العذاب عذاب القلب، وإنما ينتفي عذاب القلب بالإيمان، ولو قُلِّب المرء في ما قلب فيه من لذة وشهوة ولم يكن قلبه في راحة فإنه لا يزال معذَّبًا.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ أن هؤلاء الكفرة المنعَّمين بملذات الدنيا لا يجدون أنسًا بها ولا سكونًا إليها، بل قلوبهم قلقة، ونفوسهم محترقة، وحياتهم في تعاسة وانتكاسة؛ لفقدهم الإيمان، فلمّا خلت نفوسهم من الركون إلىٰ الله ﷻ عُذِّبوا بالركون إلىٰ الحياة الدنيا، كما قال ابن القيم رحمه الله تعالىٰ، في «النونية»:

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلوا برق النفس والشيطان

فهؤلاء هربوا من رق قلوبهم حبًّا وخضوعًا لله ﷻ فبلو برقٍّ يسومها أشد العذاب، وهو رقها لشهواتها ونزواتها التي لا تنتهي إلىٰ حد وبتسلط الشيطان عليها، فلا يزال الإنسان في تعاسة إلىٰ أن يمن الله عليه بالإيمان.

القاعدة الرابعة

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر،

كم في كتاب الله وسنَّة رسوله من الأمر بهٰذا الأصل العظيم، والقاعدة العامَّة الجامعة لكلِّ خير.

فإنَّ **المعروف**: اسم جامع لكلِّ ما عُرف حُسْنُه شرعًا وعقلًا.

والمنكر: اسم جامع لكلِّ ما عُرف قبحه شرعًا وعقلًا.

والحقّ: هو العلوم النافعة والأعمال الصَّالحة.

---

(١) «سؤال وجواب في أهم المهمات» شرحه الشيخ ضمن برنامج اليوم الواحد، الأول، في ثلاث مجالس، سنة ١٤٢٣. وهو مفرغ في موقع التفريغ.

فيدخل في هٰذا تعلّم جميع العلوم النَّافعة، وتعليمها، وكما يدخل في ذلك تعليم المستعدِّين لطلب العلم، فإنَّه يدخُل فيه تعليم النَّاس ووعظهم في المساجد والمجامع -الصِّغار والكبار- وفي الحديث مع الأصحاب وغيرهم.

وكذلك يتعيَّنُ أن يكون هيئاتٌ وجمعيات من المسلمين يدعون إلىٰ الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

ومن أكبر المعروف أنْ يسعوا في جمع كلمة المسلمين، واتِّفاقهم علىٰ مصالحهم الكلِّية وإزالة ما يقع بين المسلمين من التَّعادي والتباغُض والتَّنافر التي هي من أكبر الأسباب المُمكنة للأعداء، وأن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدَّة للجهاد بالإقبال علىٰ تعلُّم العلوم والفنون العصرية والصِّناعات والأسلحة التي لا يقوم الجهاد إلَّا بها، فإنَّ الجهاد في سبيل الله من أكبر ما يدخُل في الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والجهاد نوعان:

- جهادٌ واجتهاد في تقوية المسلمين بالرُّوح الإيمانية والقوَّة المعنوية والشَّجاعة الدِّينية.
- وجهادُ الأعداء في مدافعتهم ومهاجمتهم، وأخذ الاحتياطات الكافية لوقاية شرِّهم وضررهم.

ومعلوم أنَّ هٰذه الأمور تتوقَّف علىٰ الحِذْق والمهارة في الفُنُون العصرية النَّافعة، فيكون السَّعي فيها وفي تعلُّمها داخلًا في الجهاد وطريقًا عظيمًا من طُرقه.

ومن ذلك أن يكون طائفة من المُسلمين تتفقَّد النَّاسَ وتُلزمهم القيام بالفرائض الدِّينية، كالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحجِّ وجميع حقوق الله وحقوق خلقه الواجبة، وتَرْدعهم عن المنكرات الظَّاهرة والباطنة.

ومن الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر والتَّواصي بالحقِّ أن يكون المسلمون في كلِّ أوقاتهم وأحوالهم متناصحين، يحثُّ بعضُهم بعضًا علىٰ الحقِّ الذي هو العلم النَّافع والعمل الصَّالح والصَّبر علىٰ ذلك، فإنَّ الصَّبر هو الآلة والأساس الذي لا ثبوت للأمور إلَّا به.

ومن ذلك السَّعيُ في المشَّاريع الخيريَّة التي تنفع الأمَّة، وتحصيلُ الأموال لقيامها وتقويمها؛ كالمدارس العلميَّة في جميع فنون العلم النَّافع في الدِّين والدُّنيا، المُعينة علىٰ الدِّين، سواء كان ذلك سعيًا علىٰ طريق الإحسان المحض أو علىٰ طريق التِّجارة والكسب، فكثيرٌ من الأعمال الكبيرة التي تنفع النَّاس في دينهم ودُنياهم لا تقوم إلَّا بالشَّركات الواسعة، فإذا كان النَّاس يسعون للمساهمة في الشَّركات التِّجارية المحضة، فكيف يتأخَّرون عن الشَّركات الجامعة للأمرين، للمصلحة الدِّينية والمصلحة

الدُّنيويَّة؛ بل نفس السَّعي فيها والعمل لها من أعظم ما يقرِّب إلىٰ الله تعالىٰ، وتعيينها يتوقَّفُ علىٰ المشاورة واتِّباع المصلحة الرَّاجحة.

ومن أجلِّ وأفضل ما يدخُل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحُجج والبراهين علىٰ أعداء الدِّين من الكفَّار والمُلحدين، وقد يكون مقاومة المُلحدين الَّذين يتسمَّون باسم الإسلام ويدعون إلىٰ نبذ أصوله ودعائمه أفضل من التَّصَدِّي للمُبارزين من الأجانب المعروفين بمبارزة الدِّين؛ فإنَّ هؤلاء شرُّهم أعظم، وضررهم أكبر، لاغترار كثيرٍ من النَّاس بانتسابهم إلىٰ الإسلام، وهم في الحقيقة من أكبر أعدائه، وهؤلاء قد يكونون أُجَرَاءَ للأجانب، وقد يكونون مخدوعين، لكنْ من أوجب الواجبات تمييزُ أحوالهم وإنكار ما أدخلوه علىٰ الدِّين من الدِّعاية الباطلة.

وبما تلوناه عليك من التَّقريرات اليقينيَّة عن دين الإسلام يتَّضح عقلًا كما اتضح شرعًا بطلان ما زعمه بعض المتعصِّبين من دعاة النَّصارىٰ وأُجَرَائهم أنَّ دين الإسلام مانع من الرُّقيِّ، وأنَّ هٰذا الكلام والزَّعم الخبيث مكابرة بيِّنة، وأنَّ الرُّقِيَّ الحقيقي محالٌ وغير ممكن أن يتأسَّس [إلا] (١) علىٰ قواعد الدِّين، فالقواعد والأصول التي نبَّهْنَا عليها عن الدِّين لا يمكن أحدٌ أن ينكر أنَّها السَّبب الأعظم والطَّريق الوحيد إلىٰ الارتقاء في مدارج السَّعادة والفلاح، وأنَّه يتعذَّر النَّجاح بدونها، وأنَّ كلَّ رُقِيٍّ بغيرها فإنَّه مبنيٌّ علىٰ شفا جُرُف هار، وكيف يحصل الرُّقِيُّ إذا لم ترتق القلوب والأرواح بمحبَّة الله والإنابة والافتقار إليه وقوة الإيمان والتوكُّل عليه؟!، وكيف يحصل الرُّقِيُّ التَّامُّ ولم ترتق الأخلاق بالتَّحلِّي بالفضائل والتَّخَلِّي عن جميع الرَّذائلِ، وكيف يتمُّ الرُّقِيُّ بغير الجهاد الشَّرعي الذي هو الجهاد علىٰ تبيين الحقِّ والهدىٰ وعلىٰ قَبُوله وعلىٰ دفع عادية المعتدين؟!.

الجهاد الشَّرعي هو الذي جمع بين القوة المعنوية بالإيمان الكامل بالله، والاعتماد عليه، والتَّوكل والاستعانة به، والعمل بجميع الأسباب التي لا يتمُّ الجهاد إلَّا بها، وجمع القوَّة المادية حيث حثَّ علىٰ الاستعداد بكلِّ ما يستطاع من القوَّة العقلية والسِّياسية والرَّمي والرُّكوب وتعلُّم الصِّناعات والفُنون التي تُعين علىٰ الجهاد وعلىٰ أخذ الحذر من الأعداء بكلِّ وسيلة وطريق.

فيا ويْحَ من زعم أنَّ هٰذه التَّعاليم العظيمة العالية لا يحصل بها الرُّقِيُّ، وإنَّما يحصل بالقوَّة المادِّيَّة التي لا صِلَةَ لها بالدِّين المبنيَّة علىٰ القساوة والهمجيَّة والوحشيَّة والظُّلم ونبذ الدِّين؛ ولكنَّ أكثر النَّاس

(١) غير موجودة في المخطوط.

تغرُّهم المظاهر والصُّور وليس لهم ألبابٌ ينظرون بها إلىٰ حقائق الأشياء وإلىٰ الأمور النَّافعة، التي نتائجها الخيرات والسَّعادة الأبدية.

ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ، القاعدة الرابعة: وهي تتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، فبين أولًا أن القرآن والسنة طافحان بالأدلة المشيِّدة لهذا الأصل، ثم بين حقيقة المعروف شرعًا وأنه (اسم جامع لكل ما عرف حسنه شرعًا وعقلًا) وأن (المنكر شرعًا، اسم جامع لكل ما عرف قبحه شرعًا وعقلًا)، وأن (الحق شرعًا هو العلوم النافعة والأعمال الصالحة)، فيدخل في هذا أنواع كثيرة ترجع إلىٰ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

عدد المصنف منها تعليم جميع العلوم النافعة للمسلمين كافة، صغارهم وكبارهم في المساجد والمجامع، ومن ذلك أيضًا إيجاد هيئات وجمعيات من المسلمين يدعون إلىٰ الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأنَّ من أكبر المعروف أن يسعَوا في جمع كلمة المسلمين واتِّفاقهم علىٰ مصالحهم الكلية، وإزالة ما يقع بين المسلمين من التعادي والتباغض والتنافر، **وهو المعبر عنه شرعًا بالتأليف بين المسلمين**، فإن هذه الحقيقة التي عبر عنها المصنف لم تسمَّ في الشرع بوحدة المسلمين، لأن وحدة المسلمين غير ممكنةً شرعًا ولا عقلًا، ولم يأت في الكتاب والسنة الدعوة إليها، وإنما جاء في الكتاب والسنة الدعوة إلىٰ التَّأليف بين المسلمين والتقريب بينهم، فإن الاختلاف بينهم واقع شرعًا وقدرًا باعتبار ما تدل عليه الأحكام الشرعية لتباين أنظار المجتهدين في الأدلة، وباعتبار ما يوهب الخلق من القدر العقلية والاتجاهات النفسية، فينبغي أن يكون دأب المصلح هو الدعوة إلىٰ الألفة والتراحم، بينهما وإن بقي شيء من الخلاف يوجبه عند كل أحد، الدليل الذي يتمسك به في مسألة ما لا هواه ولا رأيه وإنما دليل شرعي بان له معنىٰ.

ثم ذكر المصنف أن من جملة المعروف أن يكون من المسلمين طائفة كافية مستعدة للجهاد بالإقبال علىٰ تعلم العلوم والفنون العصرية التي لا يقوم الجهاد إلَّا بها.

ثم ذكر أن الجهاد نوعان:

أحدهما جهاد واجتهاد في تقوية المسلمين بالرُّوح الإيمانية والقوة المعنوية والشجاعة الدينية، وذلك بتعليمهم دينهم.

والآخر جهاد الأعداء بمدافعتهم ومهاجمتهم والتوقي من شرورهم وضررهم.

ثم ذكر أن من جملة ما يدخل في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتواصي بالحق والتواصي بالصبر أن يكون من المسلمين طائفة تتفقَّدُ الناس وتلزمهم بالفرائض الشرعية.

ومن جملة ذلك أن يكون المسلمون في كل أوقاتهم وأحوالهم متناصحين يحثُّ بعضهم بعضًا على الحق؛ لأن النصيحة أصل أصيل من الدِّين، وفي حديث تميم الداري في «صحيح مسلم» أن النبي ﷺ قال: « **الدِّين النصيحة** »، وذلك يدل على عظمة النصيحة؛ إذ جاءت الجملة معرفة الطرفين في مبتدئها وخبرها، فكأن الدين كله كائنٌ في النصيحة.

ثم ذكر من جملة ذلك، السعي في المشاريع الخيرية التي تنفع الأمة وتحصيل الأموال لقيامها وتقويمها؛ كالمدارس العلمية وغيرها، وذلك بالطُّرق الشَّرعية المأذون بها.

ثم ذكر أن من أجل وأفضل ما يدخل في ذلك مجادلة المبطلين وإقامة الحجج والبراهين على أعداء الدِّين لمن ترشَّح لذلك ووجد من نفسه القوة فيه والأهلية عليه، فيكون ذلك من جهادِه، وأما من لم تكن له أهلية فليس له أن يدخل في مجادلة المبطلين؛ لأن حفظ رأس المال مقدَّم على الربح، فحِفْظ إيمان المؤمن الذي لم يقم على علم عظيم أفضل من دخوله في لَجَج وجدال مع أحد من المبطلين.

ثم ذكر رحمه الله تعالى أن ما سلف ذكره يدلُّ على أن الرقي الحقيقي والسموّ في أمر الدين والدنيا، ووجودهم في أحكام الإسلام وتعاليمه، وأن الشرع أمر الخلق بالجهاد في تحصيل ذلك، وطلبه جامعين بين القوة والمعنوية المتعلِّقة بالإيمان الكامل والاعتقاد الصحيح، والقوة المادِّية التي توجب لهم قوة وظهورًا على أعدائهم، فمن زعم أن الدين لا يتضمَّن ذلك فهو مبطل كاذب.

القاعدة الخامسة

الدين الإسلامي هو الصلاح المطلق

ولا سبيل إلى صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي

قال تعالى في عدة آيات: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ثم يرتِّب على ذلك خير الدُّنيا والآخرة، ويطلق الصَّالحات، فكلُّ شيء ينطبق عليه الصَّلاح فإنَّه داخلٌ في الصَّالحات، ﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ﴾[هود:٨٨]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصۡلِحُ عَمَلَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ [يونس]، ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ

﴿١٩٦﴾[الأعراف]، أي: الَّذين صلحت قلوبهم وأخلاقهم وأعمالهم، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾[البقرة].

وهٰذا يقوله تعالىٰ للمنافقين الَّذين يزعمون أنَّ ما هم عليه من النِّفاق وترك الإيمان صلاحٌ، فأخبر تعالىٰ أنَّه هو عين الفساد، فكلُّ من زعم أنَّ الصَّلاح في خلاف الدِّين الإسلامي فهو من هؤلاء المنافقين وعلىٰ شاكلتهم، وفي القرآن آيات كثيرة فيها الحثُّ علىٰ الصَّلاح والإصلاح والتَّحذير عن الفساد والإفساد.

وهٰذا الأصل الكبير كما أنَّه ثابت شرعًا ودينًا فإنَّه ثابت في العقول الصَّحيحة والألباب المستقيمة، وذلك بمعرفة ما هو الصَّلاح وضِدُّه، أمَّا الصَّلاح فأَنْ تكون الأمور كلُّها ظاهرها وباطنها دينيها ودنيويها معتدلة كاملة مكمّلة حاصلًا لها من الأوصاف الصَّالحة والنُّعوت المصلحة ما يوصلها إلىٰ الصَّلاح الحقيقيّ، وبذلك ينتفي عنها الفساد، أمَّا صلاح القلوب فأنْ تكون عارفة بالحقِّ معترفة به منقادة له، تابعة له.

فأعظم الحقّ علىٰ الإطلاق الذي يتعيَّن معرفته والانقياد له هو معرفة تفرُّد الرَّبِّ بالكمال المطلق الذي لا يشاركه ولا يماثله فيه مخلوقٌ بوجه من الوجوه، وأنَّه المتفرِّدُ في عظمة صفاته، وتفرُّده في أفعاله وعطائه، ومنعه وخفضه ورفعه، وتصريفه الأمور بحكمة وعناية، تتقاصر عقول العالمين عن بلوغ غايتها ونهاية دقَّتِها.

ثمَّ إذا عَرَفَتْهُ هٰذه المعرفة الصَّحيحة المتلقَّاة عن كتاب الله وسنَّة رسول الله اعترفت وانقادت له محبةً وخوفًا ورجاءً وإنابةً إليه وقصدًا في جميع شؤونها الظَّاهرة والباطنة، وبهٰذه المعرفة والاعتراف والانقياد التَّام تنقاد إلىٰ أداء حقوقه وحقوق عبادِهِ بانشراحٍ وطمأنينةٍ وإذعانٍ وداعي الإيمان ورجاء الثَّواب.

أليس هٰذا هو الصَّلاح الحقيقيّ الذي لا يمكن صلاح الأحوال إلَّا به؟، فهل يمكن أن يصلح عبد لم يُفرد ربه بمعرفته ومحبته والإنابة إليه، ولم ينقد في ظاهره وباطنه إلىٰ القيام بعبوديته وحقوق خلقه، فلو خلَت القلوب من هٰذه المعاني الجليلة، فهل يمكن أن تصلح؟، وهل يمكن أن تصلح الحركات الظَّاهرة والباطنة؟ هٰذا ممتنع ومستحيل.

فالقلوب الخالية من الإيمان، المتجرِّدة عن الانقياد والإذعان إليه حيث انقطعت عن الله، فلا بد أن تتبَّع شهواتِها وأهواءَها، وبذلك تفسد الأحوال كلُّها.

وهٰذا برهان ظاهر نيِّر علىٰ أنَّ الصَّلاح في الدِّين والدُّنيا منوط بالقيام بالدِّين الإسلامي.

وأيضًا فإنَّ النَّاس مضطرُّون إلىٰ الاجتماع، ومفتقرون إلىٰ تبادل المصالح، ولا بدَّ لبعضهم من بعضهم، وشؤون بعضهم متعلِّقة ببعض، ولا يشك أحد من العقلاء أنَّ مصالح البشر متعارضة ومطالبهم متباينة، والمصالح مختلفة، والأهوية غالبة، فكان هٰذا أقوىٰ البراهين علىٰ اضطرار الخلق إلىٰ دين وشرع سماوي معصوم يحدِّد لهم الحدود، ويشرّع لهم الشّرائع، وينهَجُ لهم طريق العدل والإنصاف، ويمكِّن بعضهم من الانتفاع ببعض بطمأنينةٍ وحياة طيِّبة.

والشَّرع والدِّين الإسلامي كفيلٌ بذلك علىٰ الوجه الأكمل والطريق الأقوم، ألا ترىٰ حُسن ما شرعه من المعاملات في المعاوضات كلّها والتبرُّعات، وما أوجبه من الحقوق بين النَّاس علىٰ حسْب ما تقتضيه المصلحة والضَّرورة والظُّروف، وما فيه من قواعد العدل التي لا غنىٰ للخلق كلِّهم عنها، وما فيه من الحُدود والعقوبات للمجرمين بحسب جرائمهم، فلو وُكل النَّاسُ إلىٰ عقولهم في هٰذه الأمور لصارت تبعًا للأهوية والأغراض، وحصلت الفوضىٰ بحسب ما تُرك من نظامات الشَّريعة.

وكلُّ قاعدة نافعة موجودة عند الأجانب، وكلُّ نظام نافع عندهم فإنَّما أصله مأخوذٌ من الدِّين الإسلامي.

فليذكر لنا المنحرفون أصلًا نافعًا ومعاملةً نافعة وعملًا نافعًا خارجًا عن الدِّين الإسلامي.

ولن يجدوا إلىٰ ذلك سبيلًا، وكيف يجدون السَّبيل والذي أنزله وشرعه للخلق هو الرَّب الرَّحيم، الذي وسعت رحمته كلَّ شيء، وأحاط علمه بكل شيء، وعلم أحوال الخلق ماضيها ومستقبلها، فلا يخفىٰ عليه منها مثقال ذرَّة، وأحكَم ما شرَعه غاية الإحكام، كما أحكَم ما قدَّره في أحسن نظام، أليس من أجلِّ طرق الصَّلاح الشُّكر عند النَّعماء، والصَّبر عند المصائب والضَّراء، الأمران اللَّذان لم يزل ولا يزال الخلق في هٰذه الدُّنيا بينهما يتقلَّبون، ولا يُمكن أن يخلو منهما مخلوق في وقت من الأوقات، ولا حالة من الأحوال.

فسلِ الشَّاكَّ في اشتمال الدِّين الإسلامي على غاية الصَّلاح: هل ما يدعو إليه الدِّين الإسلامي من مقابلة النِّعم والخيْرات بالشُّكر والثَّناء علىٰ مُوليها والاستعانة بها علىٰ ما يحبه ويرضاه في صرفها في الوجوه النَّافعة، ومقابلة المكاره والمصائب بالصَّبر والرِّضا عن الله والتَّسليم لأقداره، فيكون العباد عند النِّعم من الشَّاكرين، وعند المكاره من الصَّابرين، ويكسب الحياة الطَّيِّبة في الدُّنيا، مع ما يدَّخره اللهُ له في الآخرة، أم مقابلة النِّعم بالأشر والبَطر، والمكاره بالسُّخط والآلام القلبية والزَّلازل الرُّوحيَّة كما هو أمر

لازم للمنحرفين؟! فالعاقل لا يشكُّ أنَّ الأمرين لا يستويان.

وقل له: أيُّ الأمور خير، ما دعا إليه الدين من قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُواْ لَمۡ يُسۡرِفُواْ وَلَمۡ يَقۡتُرُواْ وَكَانَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ قَوَامٗا ٦٧﴾[الفرقان]، الذي به صلاح الأمور، أم طريقة الإسراف والتَّبذير، وطريقة البُخل والتَّقتير؟ وما دعا إليه الدِّين من الإحسان في عبادة الخالق وإيقاعها علىٰ أحسن الوجوه وأكملها والإحسان إلىٰ الخلق بكل وسائل الإحسان، أم ما يدعو إليه المنحرفون من الإعراض عن عبادة الله وحده، والإقبال التَّام علىٰ شهوات النُّفوس الخسيسة، وجعلها هي مبلغ علم الإنسان، وكل همّه منع الإحسان إلىٰ الخلق؛ بل مقابلة الإحسان بالإساءة؟!

فلا بد أن يقول العقل الصَّحيح: هٰذا الأمر الجليّ لا يحتاج إلىٰ طلب ترجيح.

وقل للشَّاكِّ في حسن الدِّين الإسلامي: هل ما دعا إليه من وجوب برِّ الوالدين وصلة الأرحام وأداء حقوق الأصحاب والجيران والمعامَلين بطريقة العدل والفضل خير أم طريقة الأثرة والعقوق والقطيعة والجور في المعاملات؟!

وقل له: الله قد وهبنا عقولًا وقوىٰ ظاهرة وباطنة نتمكَّن بها من إدراك سعادتنا، ودفع شقاوتنا، فهل إذا استعملنا ما وهبنا ربُّنا من ذلك فيما خلقنا له من عبادة ربِّنا والقيام بحقوقه وحقوق عباده ورضوخ تلك المواهب والقوىٰ لأحكام مَنْ أنْعَمَ بها ووهبها، والسُّلوك من ذلك الطَّريق المستقيم إلىٰ ربِّنا، والاستعانة بما أعطانا من المنافع الدُّنيوية إلىٰ إصلاح ديننا ومصالحنا الكُلِّية، أم الأوْلىٰ بنا أنْ نستعمل العقول والقوىٰ في أمور تافهة طفيفة؛ لا تغني عن صاحبها شيئًا إنْ لم يؤسِّسها ويبنها علىٰ الدِّين، وإنَّما يجعلها تبعًا لشهواته، ووقْفًا علىٰ مراداته ولو أهلك وضرَّ أخراه؟!

فالدِّين الصَّحيح يدعو إلىٰ الأوَّل، وطُرق الانحراف تدعو إلىٰ الثاني.

وقل له أيضًا: أيُّما أولىٰ بالعبد أنْ يتَّبع ما دعا إليه الدِّين من إخلاص الدِّين لله وحده، وتعليق الرَّغبات والرَّهبات بالله، وأن لا يرجو ولا يطمع إلا بفضل الله وكرمه، أو تعليق ذلك بالمخلوقين الذين لا يملكون لأنفسهم فضلًا عن غيرهم نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وقل له: إذا كان الرَّبُّ هو الذي خلقنا ورزقنا وهدانا وعافانا وتفضَّل علينا بالنِّعم الظَّاهرة والباطنة؛ ألا يجب علينا أن يكون هو معبودُنا، وهو الذي نحمده ونشكره، ونبذل له ما في وُسعنا واجتهادنا، ومع ذلك فإننا لا نبلغ بذلك مقابلة أدنىٰ نعمة من نعمه علينا. فهل يليق بنا أن نصرف شيئًا من ذلك في شكر

غيره، وعبودية غيره؟

لا والله إنَّ هٰذا أمرٌ يستقبحه الشَّرعُ والعقلُ والفطرةُ.

وقل للشَّاك في تعاليم الدِّين الرَّاقية: أليس الدِّين الإسلامي يحثُّ المسلمين أن يكونوا إخوة متآلفين متَّفقين علىٰ دينهم، وعلىٰ أصوله، وعلىٰ جميع مصالحه، ويرغِّبُهم في هٰذا الأصل غاية التَّرغيب، ويذكر لهم ثمرات ذلك العاجلة والآجلة، ويزجُرهم أشدَّ الزَّجر عن كلِّ ما ينافي ذلك، من التَّباغض والتَّدابر والتَّقاطُع، ويخبرهم أنَّ إصلاح ذات البين هو السَّبب والطَّريق لصلاح الأحوال، كما أنَّ فساد ذات البَيْن هو السَّبب في الأضرار الدِّينية والدُّنيوية.

فهل يوجد طريق لصلاح الأحوال الكلِّيَّة غير هٰذا الطَّريق الذي يرشد إليه الدِّين، بجميعِ وجوهه؟!.

وقل للشَّاك في كمال الدِّين: إذا قال: نحنُ نعترف بما احتوىٰ عليه الدِّين الإسلامي من الإصلاحات الدِّينية أو القلبية أو الأخلاقية، وما احتوت عليه أحكامُه من العبادات والمعاملات من الحسن الذي لا مزيد عليه، ولا يمكن أن تقترح العُقول أحكامًا مثل أحكامه، فضلًا عن كونها تقترح أعلىٰ من أحكامه، ولكن نشكّ في احتوائه علىٰ المنافع الدُّنيوية، وعلىٰ الصِّناعات وعلىٰ علوم السِّياسة.

فأجبه قائلا: أليس فيه قواعد وأصول من علم الاجتماع والسِّياسة لا يمكن أن يخترع المخترعون أحسن منها، أليس فيه الأمر بالمشاورة في جميع الأمور الدَّاخلية والخارجية، فما المقصود من المشاورة إلَّا النَّظر في المصالح والمضار والخير والشَّر، وتقديم ما تعيَّنت مصلحته أو ترجحت، واجتناب ما تعينت مضرَّته أو ترجَّحت.

فالسِّياسة الحَكِيمة كلُّها ترجع إلىٰ الشُّورىٰ في الأمور، ألم يقل الله: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[الجاثية:١٣]، ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾[لقمان:٢٠]، أي: سخَّر لنا جميع ما في الأرض لننتفع بغرسها وزرعها وحرثها واستخراج معادنها، والانتفاع بصناعاتها، وكذلك قال: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ﴾[الحديد:٢٥]، فأطلق المنافع، فشملت المنافع الدِّينية والمنافع الدُّنيوية، خصوصًا منافع الأسلحة المتنوِّعة التي تجري مع الزَّمان والأحوال والصِّناعات التي ينتفع بها النَّاس في كلِّ شيء ألم يقل الله: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾[الأنفال:٦٠]، فهٰذا يدخل فيه كلُّ قوَّة عقلية وسياسية، وتعلُّم الفنون الحربية، والرُّكوب والرَّمي، وتوابع ذلك، وكذلك أَمَرَ بأخذ الحذر من الأعداء، وذلك بالتخلُّص والتحصُّن والتحرُّز منهم بكلِّ وسيلة تحصل بها الوقاية والتَّحرُّز.

وكم في كتاب الله وسنة رسوله من الأمر بالجهاد ومقاومة الأعداء، فيدخل في ذلك كلُّ وسيلة تُعين علىٰ الجهاد في سبيل الله، فعُلم بذلك أنَّ الدِّين الإسلامي قد احتوىٰ علىٰ جميع المصالح والخيرات العاجلة والآجلة، والنفع الكلي والجزئي والديني والدنيوي.

فهٰذه كلماتٌ كلِّياتٌ يُعرف تحقيقُها بتتبُّع الأنواع والأجناس والأفراد وتحقيق الأمر فيها، وهٰذا من أكبر الآيات والبراهين أنَّه ﴿تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾[فصلت].

وممَّا يدلُّ علىٰ عظمة هٰذا الدِّين أنَّ اللهَ أباح جميع الطيِّبات من المآكل والمشارب والملابس والمناظر والمناكح والتَّمتُّعات، وحرَّم كلَّ خبيثٍ من هٰذه الأمور ضارّ لصاحبه وللمصلحة العمومية، وأنَّه ما أمر بشيءٍ فقال العقل الصَّحيح الحر: ليته نهىٰ عنه، ولا نهىٰ عن شيء فقال العقل: ليته أمر به، ولا أخبر بما تُحيله العقول؛ بل أخباره نوعان:

نوع تشهد العقول بصحَّته وكماله وفضله.

ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفُه لعدم وصولها إليه، لكونه من عالم الغيْب الذي لم تشاهده ولا شاهدت نظيره.

وهٰذا النَّوع قد أرىٰ اللهُ عبادَه في الآفاق وفي أنفسهم من الآيات ما يدلُّ علىٰ صدْقِ ما أخبرت به الرُّسل ونطقت به الكتب السَّماوية.

مَن نظر وأمعن النَّظر في هٰذه الأصول التي تلوناها ونبَّهنا عليها تنبيهًا مختصرًا علم علمًا يقينًا أنَّ الدِّين الإسلامي هو الدِّين الحق في علومه وعقائده وأخلاقه وأعماله وسياسته، وحُسن معاملته للخلق، وإحسانه إلىٰ الموافق والمخالف، وأنَّهُ يدعو إلىٰ سبيل الحقِّ بالحكمة التي هي سلوك الطُّرق والوسائل القولية والفعلية التي يستعان بها علىٰ الدِّعاية إلىٰ سبيل الله الذي هو الصِّراط المستقيم، وأنَّه يأمر باللِّين وعدم المخاشنة في مخاطبة المحاربين للدِّين، فكيف بذلك مع المؤمنين فيقول لرسوله ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ﴾[آل عمران:١٥٩]، وقال لموسىٰ وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾[طه].

ثم انظر إلىٰ ما يخاطِبُ الله به أعداءه الكفَّار، وتخاطبهم الرُّسل، فإنَّه الطَّريق الأقوم لهٰذا الطَّريق والدِّعاية إلىٰ الخير، وبه يحصل من المنافع ودفع المضار ما لا يحصل بالمخاشنة والمشاتمة، فإنَّها طريقة الجاهلين الحمقىٰ، وإن حسُنت مقاصدهم فقد ساءت طرائقهم.

وهٰذا آخر ما يسَّـر الله من هٰذه الرِّسالة الأصولية المحتوية علىٰ قواعدَ وأصولٍ مختصـرة جامعة، ونسـأله تعالىٰ أن يثبِّتنا علىٰ دينه، وصراطه المستقيم، إنَّه جوادٌ كريم، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبده ورسوله سـيِّدِنا محمَّدٍ وآله وصحبه أجمعين.

ختم المصنف رحمه الله تعالىٰ رسالته هذه بذكر القاعدة الخامسة: المبينة بـأن الـدين الإسـلامي هـو الصلاح المطلق، ولا سبيل إلىٰ صلاح البشر الصلاح الحقيقي إلا بالدين الإسلامي، وهذا الأصـل كمـا ذكر المصنف ثابتا شرعًا وعقلًا:

فأما ثبوته شرعًا فبطريق الأدلة الواردة في هذا المعنىٰ من القرآن والسنة.

وأما ثبوته عقلًا فذلك أن العقول تستدعي وتطلب ما فيه تحصيل مصالحها واستقامة حياتها وتبوئتهـا منزلة الصلاح، وهذا موجود في ما جاء في الشرع من أحكام عظام.

ثم ذكر المصنف رحمه الله تعالىٰ مدارج هـذا الصـلاح والإصـلاح، وأنَّ فاتحـة الصَّـلاح الحقيقـي والإصلاح الصَّادق، هو معرفة العبد بربه ﷻ، فلا تكون دعوة إلىٰ صلاح وإصلاح صـادقة حتـىٰ يكـون مفتاح مطالبها في الإصلاح الدعوة إلىٰ التوحيد؛ لأنه إذا كانت القلوب شاردةً بعيدة عـن الله عزوجل، فـأنىٰ لها وللصلاح، فمفتاح الصلاح الحقيقي في الكتاب والسنة هو ملء القلـوب بالإذعـان لله عزوجل بتوحيـده والإيمان به.

ثم ذكر ما يتلو ذلك من النظر إلىٰ ما يصلح به الناس في أحكامهم الاجتماعيـة، لأن النـاس مفتقـرون إلىٰ بعضهم إلىٰ بعض، فالإنسان مدني بـالطبع لا قـوام لـه في العـيش إلا بحيـاة بدنيـة كمـا قـال تعـالىٰ: ﴿وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ﴾[الحُجُرات:١٣]، أي لينتفع بعضكم من بعض، وجاءت أحكام الدين الإسلامي متضمِّنة لما فيه صلاح الخلق في اجتمـاعهم، بمـا تضـمن مـن قواعـد العـدل إقامـة الحـدود والعقوبات وبيان الحقوق بينهم.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ مشاهد من الصلاح و الإصلاح، وهي التـي يبتـدئ كـل جملـة منهـا بقولـه: (فاسأل الشاك في اكتمال الدين الإسلامي علىٰ غاية الصلاح) إلىٰ آخره، المشهد الأول مثلًا، ذكر أن مـن مشاهد الصلاح والإصلاح في الدين الإسلامي مقابلة النعم بالشـكر وأن مقابلهـا وهـو مقابلتهـا بالأشـر والبطر خلافُ الإصلاح.

ثم ذكر مشاهد أُخر من مشاهد الصلاح و الإصلاح في الإسلام، ثم رجع إلىٰ إبطال دعـوًىٰ متوهَّمـة؛

وهي الدعوىٰ التي تزعم أن دين الإسلام يتضمن الصلاح الديني دون الإصلاح الدنيوي، ففيه إصلاح ديني لأحكام الخلق في ما بينهم وبين ربهم ﷻ، أما منافعهم الدُّنيوية فإنه ليس في الإسلام ذلك فأبطل الله في هذه المقالة، ببيان ما في الشرع من قواعد وأصول تدل علىٰ مصالح الخلق في علوم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وغير ذلك مما بين بعضه العلامة محمد الأمين الشنقيطي في الرسالة الآنفة الذكر، وعلقنا عليها بما يصلح ببيان معانيها في ذلك المحل.

ثم ختم ببيان الدَّليل علىٰ عظمة هذا الدين، في الصفحة الثالثة والسبعين فقال: (وممَّا يدلُّ علىٰ عظمة هٰذا الدِّين أنَّ اللهَ أباح جميع الطيِّبات من المآكل والمشارب)، ثم قال: (وحرم كل خبيث)، فلا تأتي العقول بمنافرة أحكامه؛ بل ما طيبه الشرع طيبته العقول وما خبثه الشرع خبثته العقول، لأن الشرع لما يأتي إلىٰ علىٰ وفق ما تهتدي إليه العقول الصحيحة، وهذا معنىٰ قول المصنف: (ولا أخبر بما تحيله العقول)، فـ(الأخبار نوعان: نوع تشهد العقول بصحته وكماله وفضله.

ونوع لا تهتدي إليه ولا تعرفه لعدم وصولها إليه لكونه من علم الغيب، فقد حجبت عنه)، وإلىٰ هذا يشار إلىٰ بقول بعض النظار من المتكلمين: **إن الشرع جاء بمحارات العقول لا بمحالتها**، أي بما تحير فيه العقول لا بما تحيله العقول وتمنعه.

ثم ذكر رحمه الله تعالىٰ أن من نظر وأمعن في هذه الأصول التي ذكرها المصنف عرف أن الدين الإسلامي هو الدين الحق في علومه وعقائده، وأخلاقه وأعماله وسياسته وإحسانه إلىٰ الخلق وأنه ينبغي علىٰ أهله أن يحرصوا علىٰ سلوك الطرق والوسائل التي تدعوا إليه باللين وعلم المخاشنة بحسب ما تستدعيه الحال؛ لأن المخاشنة والمشاتمة -كما قال- طريقة الجاهلين، وإنما يفزع إليها من يحتاج إلىٰ ذلك، وأما العالم العاقل فإنه لا يحتاج إليها.

وهذا آخر البيان علىٰ هذه الجملة من الكتاب، والحمد لله رب العالمين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ عبده ورسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.